وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
كلية الاداب \قسم االغة العربية

الأداء البياني في خطب الحرب في نهج البلاغة

رسالة تقدمت بها
نجلاء عبد الحسين عليوي الغزالي

الى
مجلس كلية الاداب-قسم اللغة العربية وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية و أدابها

بأشراف
الاستاذ الدكتور حاكم حبييب الكريطي

١٤٢٣هـ   ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لاَ
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي
الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ
فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ

صدق الله العلي العظيم

الشورى /٢٣

الشكر والتقدير

اتوجه بالشكر إلى السيد عميد كلية الآداب، **الدكتور كاظم عويز الهاشمي**، الذي وقف مؤازراً قبولي فذلل الصعاب وفتح امامي السبل، والى الأستاذة **الدكتورة سهيلة مزبان** التي كانت ترفدني بالنصح والأرشاد ...فجزاهما الله الف خير ...

ولا يسعني الا ان اتقدم بجزيل شكري ووافر تقديري لأستاذي ومعلمي الأول **الدكتور حاكم حبيب الكريطي** "السراج المنير " لموافقته على الأشراف على اعداد هذا البحث ، ولما ابداه لي من توجيهات سديدة على رغم من مشاغله وضيق وقته، وفقه الله وابقاه في سماء العلم نجماً لامعاً...

كما اتوجه بالشكر والعرفان إلى العلامة **الأستاذ الدكتور محمد حسين علي الصغير**، فهو من آزرني وعمق فيَّ حب البلاغة العربية، فضلاً عما اولاني به من كرم خلقه ورصانة علمه الكثير، ولما بذله من جهد كبير ووقت غير محدود، وتوجيهات علمية دقيقة..أطال الله في عمره...

كما اتفضل بالشكر والتقدير الى استاذي ومعلمي الدكتور **عبد الجبار عبد الأمير هاني** لما ابداه لي من ملاحظات قيمة... فجراه الله عني افضل جزاء المحسنين.

وأخصّ بالشكر كل من وقف معي بالنصح والأرشاد والرأي والاسناد، من زملائي في الدراسات العليا، واخصّ بالذكر الزميلة **مديحة خضير**، والزميلين **عبد الحسن جدوع وعبد علي حسن ناعور**.

واشكر الدراسات العليا في كلية الآداب، والقائمين على المكتبة المركزية ومكتبة كلية الآداب ومكتبة الإمام الحكيم العامة ومكتبة الإمام أمير المؤمنين العامة فجزاهم الله خيراً .

وجزيل الشكر إلى كل من وقف معي من أسرتي(علاء الدين، بهاء الدين، وفاء، رغداء، رنا، نداء، مروان، مروة).

والله الموفق للصواب والهادي إلى الخير وهو حسبي عليه توكلت واليه أنيب.

الباحثة

الفهرست

التمهيد

مدخل الى الأداء البياني

جاء القرآن الكريم ليؤكد أهمية علم البيان بقوله سبحانه وتعالى [خَلَقَ الإِنسَانَ ()عَلَّمَهُ الْبَيَانَ][1]، فبه ((تستخرج الحقائق ويتوصل إلى معرفة الخلائق، وقد عدّه الله علينا من الآئه وجعله من آيات نبيه، فكان من افصح العرب بياناً، واطلقهم بالخير لساناً، وادلاهم بحجة وانطقهم بحكمه، وانظمهم بخطبه، ووصفه عز وجل بالبيان فقال: [لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ](النحل-٤٤)[2]وقد روي عنه قوله ((ان من البيان لسحراً وان من الشعر لحكمة))[3]، ليؤكد أهمية البيان في التاثير في السامعين فكان السامع ينبهر بحسن البيان، فيبدو وكانه يسمع سحراً.

ومن ثم وردت تعريفات، بحثت علم البيان بالمعنى العام، ضمن اقسام البلاغة الأخرى من معانٍ وبديع فقد نظر إليه بوصفه صفة جمالية ويكون في المعنى الجليل والعبارات المؤثرة التي تتوجه إلى العقل والخيال معاً.

ويمكن ان يكون الجاحظ اول من تكلم عن البيان بقوله: ((لان مدار الامر والغاية التي يجري القائل والسامع انما هو الفهم والافهام، فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع))[4]. وعلىهذا ترد اصول المباحث البلاغية إلى مؤلفات الجاحظ، غير ان من وضع أصول وأسس علم البيان هو عبد القاهر الجرجاني، اذ قال: ((انك لا ترى علماً هو أرسخ اصلاً وأبسق فرعاً واحلى جنى واعذب ورداً واكرم نتاجاً وأنور سراجاً من علم البيان))[5].

علم البيان كما يعرفه علماء البلاغة[6]، هو الفن الذي نستعين به على التعبير عن المعاني بصوّر مختلفة، بأقسامه الاربعة، التشبيه والمجاز -المرسل والعقلي- والاستعارة والكناية، والهدف الذي يرمي إليه -علم البيان- هو الابانة والوضوح، وضوح الدلالة، وقوة الأداء. وهو بهذا لايختلف عن معنى البيان لغوياً، فهو بمعنى ((الافصاح والظهور والكشف والايضاح ...والبين الفصيح))[7].

مادة البيان المتمثلة في التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وهي ((البلاغة بعينها، وتلك هي الأصول الكبرى والينابيع الأولى لفن القول، فيها يتقوّم الجهد البلاغي الموروث، وعليها تدور رحى البلاغة العربية))[8].

وكما يبدو ان الفكرة البيانية تتنامى في ذهن قائلها ثم يتفنن صاحبها في وسيلة اعلانها إلى الناس، وبقدر ما يكون التوافق بين مدلول الفكرة ومستوى السامع تكون الفكرة واضحة ومقبولة وبخلاف ذلك تكون غامضة وغير مفيدة. فالاسلوب البياني يمثل طريقة خاصة من طرق التعبير عن الذات، وتصوير مشاعرها وافكارها علماً ان الأداء البياني لاياتي أي شخص ((ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن في الوصول اليه، فما كل احد يفلح في شق الصدفة ويكون في ذلك من اهل المعرفة))[9].

ترد عناصر الأداء البياني ممتزجة مع التجربة الشعورية، ومعبرة عنها بأساليب ابداعية مؤثرة سواء عند

---

(١) سورة الرحمن/ ٣،٤.
(٢) احكام صنعة الكلام: ٣٢.
(٣) التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول: ٥/ ٢٨٢، ظ: البيان والتبيين: ١/ ٣٤٩
(٤) البيان والتبيين: ٧٦/١.
(٥) دلائل الاعجاز:٤.
(٦) ظ: التلخيص في علوم البلاغة: ٢٣٥، ٢٣٦.
(٧) لسان العرب: مادة "بان".
(٨) اصول البيان العربي: ٢٧.
(٩) اسرار البلاغة: ١٢٨.

الشاعر او الكاتب.

وقد عدت الفنون البيانية اكثر قدرة على الكشف عما في الالفاظ من امكانات كامنة على وفق علاقات صياغة خاصة، يحددها نوع الفن البياني.

والخطابة فن اصيل عند العرب اصالة الفصاحة والبيان عندهم، فهي ((الفن الكلامي الذي يعد أنسب الفنون لقوة الارادة، ولذلك تعدّ فناً عملياً، وهي تجمع بين قوتي الاقناع والتأثير اللذين يدفعان إلى العمل الحاسم))[١٠]، فالخطيب يستعمل جميع الأشياء التي لها تأثير في التصديق والاقناع وتثبيت الاشياء التي يراد تثبيتها بطريق الخطابة[١١].

لقد كانت الخطابة في العصر الجاهلي حافلة بفنون البيان من تشبيه بليغ واستعارة جميلة وكناية مستملحة ومجاز مستظرف، وكل هذه الفنون البيانية كانت تأتي عفواً، فقد عدّ ((رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الأعراب، وبهاؤها تخير الالفاظ))[١٢]، لأن الاسلوب الخطابي في حاجة إلى اثارة الشعور، ولأن الوضوح وحده لايكفي فالوضوح يكفل الاقناع، اما قوة الاسلوب فيكفل الاستمالة وتوجيه السامعين إلى الهدف الذي يقصده الخطيب، وعليه فقد كانت الخطابة في العصر الجاهلي ذات حظ من القوة والتأثير. وقد أدى تدوينها في القرن الثاني إلى ضياع كثير منها، ولكن ما وصل منها يدل دلالة بينة على ما كانت عليه الخطابة الجاهلية من رقي وأزدهار. فقد كان لها شأن عظيم، فتعددت مناسباتها وتنوعت اغراضها وموضوعاتها، اذ كانوا يستعملونها في منافراتهم ومنازعاتهم وفي النصح والارشاد وفي الحث على القتال وفي مناسباتهم الاجتماعية[١٣].

كانت الخطابة تأتي بعد الشعر عند العرب في العصر الجاهلي، ولكن بعدما جاء الاسلام وأصبحت حاجة المسلمين إلى الخطابة أكثر[١٤]، لما اشتهروا به من الفصاحة ووضوح الدلالة والبيان عما في انفسهم.

ومن بين أنواع الخطابة التي عرفت في العصر الجاهلي خطبة الحرب فهي تبعث العزيمة في نفوس الفرسان، واذكاء حماستهم وتبشيرهم بالنصر، وبث الثقة وتهوين الموت فالعبارة البليغة قد تقعدهم أو تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من همة، علماً ان الخطب الحربية لايلائمها الا الارتجال، وحيثما كانت اثارة واستمالة وعاطفة متدفقة كان الارتجال وسيلة الخطيب، بقوة عاطفته وحماسته إلى دعوته، فسرعان ماتمتزج نفوس السامعين بنفسه وتندفع الوجهة التي يريدها.

فالخطابة فن جاهلي زاده الاسلام رونقاً وبلاغة وارتقاءاً نظراً لحاجة المسلمين اليها، فقد اصبحت كل خطبة عبارة

عن قطعة بلاغية بجانب كونها نثراً سياسياً ومعالجة تربوية واخلاقية وتثقيفية

ولمجاراة الخطباء أسلوب القرآن في الارشاد والاقناع، مما أدى إلى زيادة الخطابة قوة ووقعاً في النفوس، لأستنهاضهم الهمم[١٥]. فقد اخذ الخطباء يضمنون خطبهم معاني الحكمة، والصدق، والحق، والخير، وكل ما في الاسلام من معانٍ سامية وجليلة.

كان أول الخطباء في عصر صدر الاسلام الرسول محمد ﷺ فقد جاءت خطبه على مجرى من البلاغة والبيان وقوة العبارة ومتانة السبك، والدلالة على المعنى. لم يرجع الرسول إلى قاعدة مكتوبة أو قانون مرسوم فهو ﷺ يعرف مواقع القول ومرامي الكلام على هدى من فطره[١٦].

فقد كانت على جانب رفيع من البلاغة والفحولة البيانية، وبدت الالفاظ في خدمة المعاني والمبادئ السامية، وعليه

اصبحت الخطبة حينئذ اقرب إلى الحياة الواقعية من الخطب الجاهلية.

---

(١٠) الاسلوب:٢٣.

(١١) ظ: تلخيص الخطابة:٦.

(١٢) البيان والتبيين: ٤٤/١.

(١٣) ظ: تاريخ الطبري: ١٠٩١/١، البيان والتبيين: ٥٣/١، ١١٦، ٢٧٣، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٤١، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٦٥، العقد الفريد: ٥٩/٤، الاغاني: ١٥/١٥، ٧٠.

(١٤) ((كان الشاعر ارفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج، لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب اعظم قدراً من الشاعر)) البيان والتبيين:٨٣/٤.

(١٥) ظ: الخطابة العربية في عصرها الذهبي: ٤١.

(١٦) ظ: الخطب والمواعظ:١٠.

وقد اتخذت الخطب فيما بعد المنهج الذي نهجه الرسول □في بناء الخطبة من بدئها بالتحميد والتمجيد والتوشيح بآي القرآن الكريم، وببعض الاحاديث النبوية، والأمثال والحكم العربية[١٧].

كان الإمام علي بن ابي طالب □في الذروة من الفصاحة والبلاغة، اذ سرى في نفسه بيان القرآن بترغيبه وترهيبه، وبيان الرسول□ بمواعظه وتشريعاته، وقد اشتهر الإمام علي □ في الأدب العربي ببلاغته فقد ورد ذكر الكثير من شذرات نهج البلاغة في بطون الكتب والمؤلفات، اما الخطب التي ألقاها في اتباعه فأكثر الخطب العربية بلاغة وصدقاً[١٨]. وقد تناولت خطبه □ اغراضاً شتى، ولكن، الغالب عليها خطبة الحرب، نظراً للصعاب والحروب التي تعرض لها الإمام في عهد خلافته والتي دامت اربع سنوات وتسعة أشهر[١٩]، خاض الإمام □ في خضمها ثلاث معارك وهي على التتالي: معركة الجمل (٣٦هـ)، ومعركة صفين[٢٠](٣٦، ٣٧هـ)، وفي تلك الأثناء دبَّ التخاذل في جماعة الإمام واصحابه فحدثت معركة النهروان (٣٨هـ).

فمن الطبيعي ان تتسم خطبه □ بالطابع الحربي، والجهادي، والجدلي، لشدة معارضيه من اصحابه وخصومه.

ولقد كان للإمام ((مقام محمود في احقاق الحق واقامة الحدود ونصرة المظلومين وقد صرح بذلك في قوله وعمله في جميع ادوار حياته المملوءة بصالح الاعمال))[٢١].

تتجلى بلاغة الإمام في خطبه -الحربية- بقدرته على اعطاء الكلمة زخماً من المعاني بنقله من خلال الاسلوب التصويري من مجرد السمع إلى مشاهد وذلك بأستعماله للفنون البيانية فالامام يهدف إلى قوة تأثيره في عقول سامعيه وقلوبهم، وقد ابدع □ في التعبير عما كان يعانيه، فقد عدت تعبيراً عن الصدى العميق الذي يترجح في نفسه بتأثير الطوارئ السياسية.

وما عُرف عن خطب الحرب –خاصة- كان□ يوقظ العقول الخامدة ويبعث الشعور بالحماسة، ويثير العواطف في نفوس اصحابه من مساندين ومخالفين، فقد استعمل □ الفكر والوجدان ونفذ من خلالهما إلى اصحابه، فقد كان الإمام يأخذ المعنى الواحد ويعرضه علينا في عدة صور بيانية مختلفة، فـ ((التكرار المعنوي جائز في الخطابة لتثبت الافكار في الأذهان وتمكين السامعين من الفهم والقوة والتأثير))[٢٢].

وكما يبدو ان في خطب الحرب للإمام □ نزعات ثلاث متباينة دينية وسياسية وبلاغية، و((البلاغية)) تخدمهما وتضاعف من وقعهما[٢٣]. فقد كان □ ينطق بلسان الحكمة والتجربة الحربية، فضلاً عن معرفته لغة امته، فقد كان عارفاً لأذواق مستمعيه، فلم يتخل عن نزعته الخطابية سواء أكان ذلك في مواضع السخط والنقمة أم في مواضع الرضا واللين.

أدب الإمام علي □ أدب اسلامي، نابع من ذهنية اسلامية صاغها أدب القرآن الكريم والحديث النبوي وثقافته فهو ((الإمام في الأدب كما هو الإمام في ما اثبت من حقوق وفي ما علم وهدى، وآيته في ذلك ((نهج البلاغة))))[٢٤].

((نهج البلاغة))الذي شرح نحو اربعين مرة، وترجمت منه فصولٌ إلى بعض اللغات الشرقية والغربية، وفتح امام النقد ابواباً ومذاهب وهو اكبر واشهر مجموعة حفظت تعود إلى عصر الخلفاء الراشدين، ولم تخل منه مكتبة عربية أو اعجمية من المكتبات التي تستوفي اصول المراجع، وحتى مفنديه لم ينكروا قيمته الأدبية.... ان ذكرت تلك الخصائص عرفنا ان ((الشريف الرضي)) خدم الأدب واللغة والاخلاق بجمع أصول ذلك الكتاب[٢٥].

وعلى هذا فقد كان للإمام □ اهدافٌ قصدها وسعى إلى تحقيقها -في خطبة الحرب- فهو يدعو لنور الحق ويلوذ به، غامراً ذلك كله بتلك الحلة البيانية، التي تخرج الافكار مهما كانت عميقة في روعة من الرونق والجمال فهو بحق ((دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق)) فقد راعى □ المقام والمناسبة والمطلوب.

---

(١٧) ظ: نقد النثر: ٩٥.
(١٨) ظ: في النقد والآدب: ١٠٠/٢.
(١٩) ظ: الكامل في التاريخ: ١٠٥/٣، ١١٣، ١٤١، ١٨٧، ١٩٩.
(٢٠) من اهم معارك الإمام دامت مئة يوم وعشرة ايام.ظ: وقعة صفين: ٢٣/١.
(٢١) أضواء على السنة المحمدية: ٢٠٤/٢.
(٢٢) الاسلوب: ١١٨.
(٢٣) ظ: في النقد والأدب: ١١٥/٢.
(٢٤) روائع نهج البلاغة:٧،٨.
(٢٥) ظ: عبقرية الشريف الرضي: ٢٢٥/١.

وقد عدت خطبه مدارس لتعليم الأدب واجادة اللغة[٢٦] وهذا هو رجل التضحية والجهاد، صاحب القيم الروحية والانسانية.

---

(٢٦) ظ: الأدب في موكب الحضارة: كتاب النثر: ١٩٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين ...وبعد

فقد تأثرت الخطابة الاسلامية بالظاهرة البلاغية التي أشرقت في الديباجة القرآنية والاحاديث النبوية، مرتفعة بالاسلوب الفني في الأدب العربي – إلى مستوى فني وثقافي لم نألفه في العصر الجاهلي- إلى ذروة الاعجاز، وهي – الخطابة- الوسيلة الوحيدة لبث الافكار والدعوات.

أصبح الخطيب انذاك مقدماً على الشاعر لفرط حاجة الناس إلى الخطابة لتوطيد اركان الاسلام وبسط سلطانه في الوعظ والارشاد لما فيه من فلاح للناس في الدنيا والاخرة، فضلاً عن استنهاض الهمم وجمع الاحزاب وارهاب الاعداء.

و"نهج البلاغة" يمثل اثراً من الآثار الفنية في أدب الحضارة العربية الاسلامية، فكراً واسلوباً، ويعد تراثاً انسانياً لا تستأثر به طائفة من الناس دون أخرى، فهو وثيقة تاريخية أدبية، يأتي بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، في دقة البيان وروعة الاسلوب، وسمو الافكار.

أمير المؤمنين علي بن ابي طالب فتى الاسلام وربيب الرسول □ وصهره، كان خليفة وقائداً وخطيباً في آنٍ معاً.

فهو الخليفة الذي يتحلى ابداً بالوقار والرزانة،وهو الفارس الذي تعود ان يخوض غمار الحرب وينتصر للحق ويتفانى في سبيله فضلاً عما تركه من دروس بليغة. كما قال السيد الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله ورعاه) من حديث له ضد قوى الشر والباطل: ((اننا سنقاتلهم بسيف الامام علي □ دفاعاً عن المبادئ)) ، فسيف الإمام علي □ سيف الحق بلا شك، اما حين يخطب في اتباعه ومعارضيه، فيحس المرء أنّه يتكلم من أعماق قلبه، ولا نكاد نخطئ

الاخلاص منبعثاً من ثنايا كلامه البليغ، فبلاغته □ ترافقه في جميع مواقفه حتى الارتجالية منها.

وقد وقع أختياري على خطب الحرب في نهج البلاغة للوقوف على ما فيها -من بيان- موضوعاً لرسالتي، لأنّ هذه الخطب غالباً ما تكون ارتجالية، لا مجال فيها للتكلف والعناية الفنية المتعمدة، وما فيها من بيان هو نتاج السليقة الصافية التي عُرف بها الإمام فكان نهجه فيها نهجاً للبلاغة حقاً.

خطب الإمام الحربية في حلتها البلاغية نشعر اننا امام اثر فني متكامل في روعة القول وقوة الحجة، وقد كانت شديدة اللهجة لانها صادرة عن قلب لايخلو من الم، وقد اكسبها معاني التقوى والعبادة والعمل الصالح.

كانت الخطابة سلاحاً من اسلحة الإمام □ في حروبه فالعبارة البليغة، قد تقعدهم او تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة، وقد تدرج الإمام □ في اثارة شعور سامعيه حتى وصل بهم إلى ما يصبو إليه وسلك إلى ذلك طريقاً تتوافر فيه بلاغة الاداء وقوة التأثير.

ولقد تصدى غير واحد من الدارسين المعاصرين "لنهج البلاغة" عامة والخطب خاصة، الا انها في حدود نحوية ولغوية وفنية، غير ان "الأداء البياني لخطب الحرب" احسبه لم يبحث كلاً بل هناك شذرات في بطون الكتب افدتُ من بعضها وتحدثت عن بعضها الأخر.

كانت المصادر والمراجع في البحث تعنى بكتب البلاغة والنقد والدلالة وكتب التفسير وعلوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، والامثال فضلاً عن الموروث الأدبي عند العرب.

وقد استعنت بكتاب نهج البلاغة- شرح محمد عبده- في ضبط النصوص الخاصة بخطب الحرب، فضلاً عن شرح ابن ابي الحديد.

وقد انتظم البحث في ثلاثة فصول يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة.

فلما كان موضوع البحث يخص الأداء البياني من بين سائر انواع البلاغة الأخرى، والخطابة عامة وخطب الحرب خاصة عند الإمام □ جاء التمهيد مشتملاً على كلا الموضوعين وكان ترتيب الفصول كالآتي:

تكفل **الفصل الأول** : ليبحث في مصادر الأداء البياني لهذه الخطب- خطب الحرب- وكانت مباحثه في؛ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي ومن ثم الأمثال العربية.

وانصرف الفصل الثاني : بعناصر الأداء البياني في خطب الحرب في نهج البلاغة وجاء على اربعة

مباحث - التشبيه والمجاز بنوعيه -المرسل والعقلي- والاستعارة ومن ثم الكناية.

اما **الفصل الثالث**: فكان يبحث في وظائف الأداء البياني وقد جاءت الوظائف على النحو الآتي: الوظيفة النفسية والوظيفة العقلية والوظيفة الدينية.

وجاءت خاتمة البحث، متضمنة اهم ما خلص إليه البحث من نتائج.

ومن ثم جاءت عدتي في البحث والتعليل والتحليل والاستنتاج، الا وهي المصادر القديمة والمراجع الحديثة.

وعليه فقد بذلت فيه طاقتي وكل مافي وسعي من جهد، وبعد ...

فقد كان من تمام نعمة الله عليّ بهذا البحث ان جعل اتمامه على يد الأستاذ المشرف الدكتور حاكم حبيب الكريطي، فقد كان كالسراج المنير في طريق بحثي، وكانت له اليد البيضاء في الاصلاح والتنبيه، حد البكاء احياناً، فجزاه الله عني افضل جزاء المحسنين.

وامتناني إلى كل من اعانني على اخراج هذا العمل الأدبي الذي ابتغي به وجه الله عز وجل والفوز بمرضاته.

[فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه] (الزلزلة-٧،٨)

The Clarification Performance in Warfare Orations In Nahj Al-Balagha

Abstract

The Islamic oration was affected by rhetoric which was enlightened by the Holy Quran and the Prophet's Pure Talks to promote the art mode of the Arabic literature to such a remarkable level that couldn't be noticed in the pre-Islamic period. Thus, it reached the peak. Oration is the only means of spreading and establishing new thoughts and concepts.

At that time the orator became more comparable than the poet because oration was badly needed by people for establishing the principles of Islam and spreading its authority through preaching and directing them in the right way, and finally allow them to win what would enlighten their life on earth and after death. This also helped in uniting society, evoking determination and making enemies fear Islam.

"Nahj Al-Balagha" represents a remarkable feature in the Islamic literature, being a unique mode and principle for all. It is a historical literal document second to the Holy Quran and the Pure Prophet's Talks in gaining rhetorical accuracy and magnificent mode.

The Communder of the believers, Al- Imam Ali Bin Abi Talib, the henchman of Islam and the Prophet's son-in-law, was a caliph, a leader and a orator. He was the most revered and deliberate in manner; the knight who never hesitated to sacrifice for Islam and establish the good and right. He left behind unforgettable most effective literal inheritance for everyone and as our President Saddam Hussein (Allah may save and guard) said with regard of the evil forces "We are fighting them with the sword of Al-Imam Ali

(peace be on him) to protect principles". Indeed it is the sword of the right and good. And when one looks deeply into his words, he recognizes his rhetoric orations emerging from the bottom of his heart that was not free from pain These features appear in his oral and written orations.

The warfare orations of Al-Imam make us feel that we are in front of a perfect magnificent rhetoric wording emerging from the bottom of a heart with some pain, so you find it stressed wording. He included in it what expresses God fearing and God worshipping and good deed.

Oration was one of the Imam's weapons in his fights. He used it, owing to its being rhetorical, to evoke his men and encourage them and arousing their feelings and making them reach the aim he wanted them to understand and be aware of.

I have chosen particularly the warfare orations in Nahj Al-Balagha to be aware of what they have from clarification. This is because those orations were often oral and none-officious, and free from any features of art. They are pure, so they represent the mode of the rhetorics.

Some recent investigators have dealt with "The Nahj Al-Balagha" in general, and the orations in particular, but they were in grammatical and linguistic and artistry limitations.

"The Clarification Performance in Warfare Orations" has not investigated the altogether content, but there are some bright images I utilized and some others I talked about.

The references regard books of rhetoric, criticism and indication; and interpretation books of the Holy Quran and the Prophet's Talks sciences, and the proverbs as well as the Arabic literature cultural inheritance.

I depended on Nahj Al-Balagha (Mohammed Abda Explanation) in determining the texts regarding warfare orations; and I also made use of Ibn Abi Hadeed Explanation.

My research is arranged in three chapters proceeded by an a relusion and ended by a conclusion and as follows:

Chapter one deals with the clarification performance aspects in warfare orations in Nahj Al-Balagha and includes four researches: assimilation, similitude, personification and association.

Chapter two deals with the resources of the clarification performance of these orations - warfare orations - . The investigations are about The Holy Quran and the Pure Prophet’s Talks and the Arabic poetry and then the Arabic proverbs.

Chapter three deals with the functions of the clarification performance which comes in sequence as: the mental function, the psychological function, and the religious function.

The conclusion includes: what the results that the research has arrived at.

Then comes my whole tool in investigation, analysis, justification, and conclusion. These are the old and the new references.

I have done my best and thanks to Allah I ended this research aided by Allah first, and by my supervisor Dr. Hakem Habeeb Al-Guraity who helped me much like a guiding torch in direction and reform.

My thanks and respect to all those who never hesitated to offer help.

الفصل الاول

المبحث الأول:
القرآن الكريم

١ ـ الاستشهاد بالآيات القرآنية
٢ ـ انتقاء المفردة القرآنية
٣ ـ الالفاظ المتقابلة في الآيات القرآنية
٤ ـ الافادة من التركيب الجملي في القرآن

تأثير القرآن الكريم:

جاء الاسلام بمعجزته الكبرى، التي تحدى الله بها العرب قاطبة. فكانت فيه معانٍ جديدة وأغراض جديدة، ومن ثم كانت فيها تشبيهات ومجازات واستعارات وكنايات لم يبلغها العرب، على الرغم من ذكاء قريحتهم وتفننهم في أساليب الكلام قبل الاسلام.

لقد كان تأثر المؤمنين بالقران من القوة؛ اذ حملهم على تغيير طباعهم وأوضاعهم وترك ما ورثوه عن أبائهم واجدادهم من عادات وتقاليد لايقبلها الاسلام.

فـ ((قد كان للقران الكريم أثر كبير في العالم الأدبي والعلمي، فقد وحد اللغة العربية وحفظها ووسع نطاقها، وعمل على تليينها وتهذيبها، ثم أنه كان اساس العلوم اللغوية والبيانية عند العرب، وهو ابدا المثال الأعلى في البلاغة والفصاحة))[٢٧]، فقد ترك أثراً في عقلية العرب ونفوسهم، فضلاً عن بعثه فيهم حساً جمالياً جديداً لم يكن مألوفاً فيما سبق من آثار الجاهليين، فنزوله باسلوب لايبارى في قوة اقناعه وبلاغة تركيبه، ((أصبح معيناً للأدباء ينهلون منه ويقتبسون ويسعون إلى محاكاة اسلوبه، وكان اثره في النثر قويا، سواء من حيث الاسلوب والصياغة، أو من حيث الافكار والمعاني، أو من حيث الصور والاخيلة، هذا فضلاً عن اقتباس آيات منه، وتوشيح الخطب بها))[٢٨]، فاصبحت الخطب الاسلامية تضفي عليها مسحة بلاغية مكتسبة من القرآن الكريم، ومن هنا جاءت خطب الإمام متأثرة بالطابع القراني، تأثراً متداخلاً وكأنها تصدر عن القرآن.

وفي هذا الضوء يمكننا ان نعد القرآن الكريم المصدر الأول لثقافة الإمام ((الذي تأثر به وشرب آيه من طفولته وأيام النبوة وفي عصر الاشراق القرآني، وعلي هو الذي تلاه ووعاه وعرف سحر اعجازه، فما كان عند علي من بيان وقدرة فهي عن القرآن، مصدرها ، والقران مصدر من أفضل وأعظم المصادر للثقافة العربية))[٢٩].

وسبب تمثل الإمام بالقران الكريم يعود إلى ((قربه من عصر الرسول وشدة تأثره بكتابه الكريم، ويضاف سبب آخر في تعليل شدة تأثر اسلوبه بالقران، وهو طبيعة الظروف السياسية التي استجدت في عصره...جعل الإمام يكثر من تمثله بالآيات القرآنية لان المسلمين قد بايعوه في أول خلافته وأجمع المهاجرون والانصار على ذلك، فكل من يخرج على البيعة فانما هو خارج على الجماعة، وقتاله جهاد، والموت في حربه شهادة، ومن هنا كثرت هذه المعاني الاسلامية في خطبه، وتمثل بالايات والعبارات القرآنية مستمداً من ثقافته الأصلية وسليقته البليغة التي اعتمدت على منهل القرآن وأدبه))[٣٠].

لاشك أن النص القرآني اذا ذكر ضمن الكلام بان فضله على عبارات الخطبة، ومن ثم تصبح ابلغ في الوصول إلى المراد وأوقع في النفوس، فقد عُدّ القرآن من الآت علم البيان:

((لان في حفظ القرآن فوائد كثيرة، منها أنه يضمن كلامه بالآيات في اماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، ولاشبهة فيما يصير الكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق. – فالقرآن– بحر يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي الكلام))[٣١].

ويمكن دراسة أثر القرآن الكريم في الأداء البياني في خطب الحرب للإمام من خلال:

١- الاستشهاد بالآيات القرآنية.
٢- انتقاء المفردة القرآنية.
٣- الالفاظ المتقابلة في الايات القرآنية.
٤- الافادة من التركيب الجملي في الآيات القرآنية.

١- الاستشهاد بالايات القرآنية :

---

(٢٧) الموجز في الأدب العربي وتاريخه: ٣٣٦/١.
(٢٨) الخطابة العربية في عصرها الذهبي: ٤١.
(٢٩) الإمام علي ومدرسة القرآن: ٥٧.
(٣٠) أثر القرآن الكريم في الأدب العربي في القرن الأول الهجري: ٧٥.
(٣١) المثل السائر: ١/ ٦١.

أن امتزاج الثقافة القرآنية في ذاتية الإمام□ إنما تظهر من حنايا خطبه المتأثرة بأساليب القرآن، وهي تحكي بالوقت نفسه إندماج فكر الإمام في الفكر القرآني اندماجاً كلياً، فهو يتحدث عن عجائب الكون، وظواهر المناخ، وحياة الكائنات الحية، في أكثر من خطبة، ليضفي الطابع الشمولي العام لمفاهيم القرآن، كبيرها وصغيرها، حتى اذا لاحظنا خطبه الحربية الرصينة، وجدناه□يضيف إليها جودة البيان، وحسن الانتقاء، فيما يناسبها من الآيات التي تحث على الجهاد، وتؤكد التصاق تلك الخطب بآيات القرآن العظيم فكراً ومضموناً، فالقرآن كما قال باحث معاصر ((يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية ليصل إلى هدفه من تهذيب النفس، وحب العمل الصالح، والايمان بالله واليوم الأخر))[٣٢].

وقد تم اختيار نماذج خمسة من خطبه، مشتملة على هذا الملحظ.

الاقتباس الأول كان في ذم المتقاعسين عن القتال، القى خطبته هذهِ عند علمه بغزوة النعمان بن بشير صاحب معاوية لعين التمر[٣٣]، اذ وردَ قوله تعالى:

[يُجَدِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلى المَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ] (الانفال-٦)

نزلت سورة الانفال بأسرها في غزوة بدر، وقد جاء الإمام □ بقوله تعالى[كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلى المَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ]، أي انهم كانوا يجادلون النبي□في لقاء عدوهم لشدة القتال، وكانوا يطلبون الرخصة في التخلف عنه أو في تأخير خروجهم إلى وقت أخر في يوم بدر، اذ لم يكونوا مستعدين، ولكراهتهم له، كانوا بمنزلة من يساق إلى الموت وهم يرونه عياناً[٣٤] . وهذا ما حدث مع الإمام □ وأصحابه فهو يريد أن يؤكد لهم، انهم على حق، فلا وجه للسؤال عن طبيعة الحرب مع خصومه، ولو كانوا كذلك لما خشوا الموت، لأن الجهاد يقودهم إلى الجنة.

كما جاء □ بأقتباس آخر ضمن كلام له، للخوارج حين اعتزلوا الحكومة[٣٥]، اذ تلى قوله تعالى:

[قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُون اللَّهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنْ المُهْتَدِينَ](الانعام /٥٦).

قد ورد قوله تعالى ((قد ضللت اذا وما انا من المهتدين)) وكأنه □ يمثل حاله بحال الرسول□ اذ نزلت عليه هذه الاية عندما امر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يظهر البراءة مما يعبدون من الاصنام فعبادتهم لها كانت على طريق الهوى لا على طريق البينة والبرهان، ومن ثم لايتبع أهواءهم النبي في طرد المؤمنين وقوله تعالى ((فقد ضللت اذا)) أي ان فعل النبي ذلك ما هو من المهتدين، أي النبيين الذين سلكوا طريق الهدى[٣٦].

وهذا أشبه ما حدث بين الإمام □ وبين الخوارج الذين اتبعوا أهواءهم واتخذوها آلهة لهم، فلايمكن ان يوافقهم الإمام □ على ذلك.

لقد كان □ شديد الدقة فيما يختار من آيات الذكر الحكيم تتناسب والحدث الذي نزلت فيه، فكل ما جاء من آيات هو ((ثروة بيانية لاتنفذ، ومعيناً بلاغياً لاينضب، ورسالة سماوية لايقربها الباطل، وكلمهم بلغتهم فنفذ إلى قلوبهم محتفلاً بالبيان، فهو بيان للناس يهديهم ويرشدهم ويوجههم نحو الله))[٣٧].

كما وردت آية من آيات الذكر الحكيم في كلام الإمام □ كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين، وهو يحثهم على القتال [٣٨]، فقد جاء بقوله تعالى :

[فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَلَكُمْ](محمد -٣٥).

أورد الإمام □ هذه الآية، وهي من سورة محمد وتسمى ايضاً سورة القتال[٣٩]، وهي تبين فلسفة القتال حسب تعاليم الله سبحانه وتعالى؛ فهو يوصي اصحاب النبي□ بعدم الضعف في القتال وتجنب المسالمة والمصالحة، فبالاضافة إلى نصاعة الاختيار، ودقة التأكيد، نلحظ قوله تعالى ((وانتم الاعلون)) التي توحي بالغلبة والانتصار، ومعنى هذا انها تشير إلى النتائج التي يود المقاتل معرفتها في ربح الحرب أو خسرانها، حتى اذا عرف المصير بالظفر والنصر، تبين مدى الروح الآلهي في رفع معنويات الجيش.

---

(٣٢) بلاغة القرآن الكريم: ٣٧.
(٣٣) ظ: نهج البلاغة: ٩٠/١.
(٣٤) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥١٦/٤.
(٣٥) ظ: نهج البلاغة: ١٠٦/١.
(٣٦) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن:٣٠٩/٤.
(٣٧) أصول البيان العربي: ١٣.
(٣٨) ظ: نهج البلاغة: ١١٥/١.
(٣٩) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن:١٠٧/٩.

وحديث الاية عن حال المؤمنين بأنهم الأعلون وعد شريف من الله تعالى لهم بالنصرة والاستعلاء على الأعداء، ولن ينقصهم شيئاً بل يثيبهم الله سبحانه وتعالى ويزيدهم من فضله، فقد جاء الإمام□ بهذه الاية لينبه أصحابه حول هذه التعليمات، والاستشهاد بها جاء بعد دعوة معسكر الشام إلى التحكيم، لأن النصر أصبح قريباً من اصحابه، فحاول □ الاستعانة بالقرآن الكريم لأثارة همم أصحابه وهكذا كانت آياته ((قوة للخطيب وحلية المنشيء، يرصع بها كلامه فتتميز - الخطبة- بطلاوتها ونفاستها))[٤٠].

وردت آية اخرى في خطبة للإمام □ في ذم بعض اصحابه[٤١]. عند تركهم القتال والنصر يكاد يتم، وهي حاملة لمعنى العتاب والتقريع، فقد جاء بقوله تعالى:

[وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ] (ص-٨٨)

قوله تعالى كان معنياً به الكفار أي ما أنبئ عنه وأخبر به من الدعاء إلى الله وتوحيده والترغيب في الجنة والتحذير من النار بعد حين أي بعد زمان[٤٢]، فقد جاء الإمام□ بهذا النص القرآني دلالة على ما يشعر به أزاء اصحابه وكل ما ورد من كلام له □ سيعلمون صدقه بعد زمان ومن مات منهم سيعلمه بعد موته.

وكما وردت الآية الاخيرة في خطبة أخرى في النقد والتعريض بالخوارج، عندما أرسل رجلاً من اصحابه يعلم له علم أحوال قوم من جند الكوفة همّوا باللحاق بالخوارج وكانوا على خوف منه□ فلما عاد إليه الرجل قال له: ((أأمنوا فقطنوا ام جبنوا فظعنوا؟)) فقال له الرجل: بل ضعنوا يا أمير المؤمنين[٤٣]، فقال□ عن قول الله سبحانه وتعالى :

[كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ] (هود-٩٥)

فقد جاء □ بالخوارج بدلاً من قوم مدين فقال ((بعداً لهم كما بعدت ثمود)) وقد أراد بالبعد، اللعنة وتكون اللعنة ببعدهم عن رحمة الله، كما بعدت ثمود، وهلكوا كما هلكت ثمود[٤٤].

٢- انتقاء المفردة القرآنية :

تمكن الإمام □ بذائقته البلاغية وحسه من ان يختار من الالفاظ ما هو قوي في تصويره، واضح في دلالته على مراده، وقد تمكنت هذه الالفاظ ان توحي بما كان يريد الإمام □ من اصحابه، وهذهِ الالفاظ كانت تحرك نفوس اصحابه وتثير الوجدان فيهم، فكل لفظة، في القرآن ((وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى اقوى أداء، ولذلك لاتجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل اليك معنى جديداً))[٤٥].

الإمام□ لايحيد باللفظة عن دقيق معناها على الرغم من اشتراكها مع نظيراتها من المفردات في الدلالة، وقد راعى الإمام □ دقة التعبير القرآني في بعض المفردات التي وردت في خطب الحرب خاصة، منها:

الحرب، المطر ، الريح ، أعين ، صَبّ

لفظة ((الحرب)) وردت في القرآن الكريم، اربع مرات فقط، منها قوله تعالى :

أ- [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ] (البقرة-٢٧٩)

ب- [وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ][٤٦](المائدة-٦٤)

ولو تأملنا هذه الايات الكريمة لرأينا ان لفظة ((الحرب)) ترد في موضع الذم أو العداء والخصومة بعيداً عن

([٤٠]) تاريخ الأدب العربي:احمد حسن الزيات : ٨٧.

([٤١]) ظ: نهج البلاغة: ١١٨/١.

([٤٢]) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨/ ٤٨٧.

([٤٣]) ظ: نهج البلاغة: ١٠٢/٢.

([٤٤]) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٨٦/٥.

([٤٥]) بلاغة القرآن: ٥٧.

([٤٦]) ظ: سورة محمد/٤، الانفال/ ٥٧.

حدث الاقتتال او المواجهة العسكرية[٤٧]، وقد كان مدركاً تماماً دقة التعبير في هذه اللفظة، لأن مفهوم الحرب، ليست المواجهة في الميدان فقط، وانما الحرب بكل وجوهها، ولذا جاء استعمال الإمام لها بهذا المعنى، فالامتناع عن دفع الزكاة واالخراج... هو ضرب من الحرب، فوردت في خطبه في المعنى نفسه الذي جاءت عليه في القرآن، فقال من خطبة له، في استنفار الناس إلى أهل الشام، اذ قال:

"لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ، تُكَادُونَ وَلا تَكِيدُونَ" [٤٨].

وخطبة أخرى وردت فيها أيضاً، لفظة الحرب، اذ قال :

"وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ"[٤٩]

ومرة ثالثة تأتي في احدى الخطب المشتملة على الملاحم اذ قال:

"مَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا"[٥٠]

ونعود مرة أخرى إلى خطبة له يومئ بها إلى الملاحم اذ قال:

"حــَـتّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بَادِياً نَوَاجِذُهَا مملؤة اخلافها حلوا رضاعها علقماً عاقبتها"[٥١]

لقد وردت لفظة ((الحرب)) في النصوص أعلاه بمعنى الذم ففي النص الأول جاء بالحرب بقصد عتاب وتقريع أصحابه لتخلفهم عن القتال، اذ شبه اصحابه بوقود النار، للحرب.

وفي النص الثاني جاء بالتشبيه البليغ، لانه شبه الحرب بالباب، وقد ترد على قصد الاستعارة المكنية اذ شبهت الحرب بالشيء الذي يكون له باب، وحذف المشبه به واشار إلى شيء من لوازمه وهو الباب، اما النص الثالث، فقد وردت الحرب مضافة إلى الالفاظ التي معها، مشكلة استعارة مكنية ايضاً، اذ شبه الحرب بالبحر المائج، الغاضب، فحذف المشبه به وذكر احد لوازمه وهو الموج.

أما النص الرابع، والأخير، فقد صور الحرب بحيوان وقد بدت نواجذه وقد أمتلأت اخلافه بالشر والموت، وفي الوقت ذاته فهي حلوة الارضاع لأهل الحق، وهكذا فقد كان الإمام يقصد في ذكر الحرب إلى الذم والخصومة والعداء.

كلمة ((المطر)) وردت في القرآن الكريم في موضع الانتقام فقط[٥٢]. وقد جاءت في خمسة عشر موضعاً من آي الذكر الحكيم، منها قوله تعالى:

[وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ المُجْرِمِينَ] (الاعراف-٨٤)

وقوله تعالى :

[فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلِهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ](هود-٨٢، الحجر/ ٧٤)

وقوله تعالى :

[وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ المُنذرِينَ] (الشعراء-١٧٣، النحل - ٥٨)

فقد كانت في جميع المواضع ((تدل على نقمة الله على الكافرين والمعرضين، يرسله الله عز وجل عقاباً للأمم الكافرة، والاقوام السادرة في غيها الذين لايتيحون الفرصة لرسل الله، ودعاة الحق ان يقوموا بمهمتهم))[٥٣]. وهكذا جاءت في احدى خطب الحرب للإمام في موضع الانتقام، فقد وعد عدوه بالعقاب فنزل عليه، فجاء بالمطر للدلالة على هذا المعنى، اذ قال:

" لــَسْنَا نُرْعِدُ حَتّى نُوقِعَ، وَلانُسِيلُ حَتّى نُمْطِرَ"[٥٤]

لم يخرج الإمام عن دقة الاستعمال القرآني لهذهِ المفردة، فجاء بها كما ورد معناها في آي الذكر الحكيم، اما اذا اراد ان يعبر عن الماء المنسكب من السماء رحمة للعباد، ولري الزرع والناس والانعام عبر عنها بلفظة

---

[٤٧] ظ: في دائرة النقد اللغوي: ٢٨.
[٤٨] نهج البلاغة: ٨٣/١.
[٤٩] م.ن: ٨٦/٢، ٨٧.
[٥٠] م.ن: ١٩٥/١.
[٥١] م.ن: ٢١/٢.
[٥٢] ظ: البيان والتبيين: ٣٤/١.
[٥٣] التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ٥٠٨.
[٥٤] نهج البلاغة:١/ ٤٢، ٤٣.

((الغيث)) كما ورد ذكرها في القرآن الكريم[٥٥]، معبرة عن هذا المعنى.

اما لفظة ((الريح)) فكان لها معنى ودلالة خاصة تختلف عن معنى ودلالة ((الرياح))، فالريح ترد في القرآن بمعنى الشدة المقترنة بالعذاب اما الرياح، فترد دلالة على الخير، فقد وردت ((الريح)) في ثلاثة صور[٥٦]، وقد جاء الإمام بأحداها في خطبه وهي التي تعني الريح الضارة الشديدة القاسية العاصفة، منها قوله تعالى:

[أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا] (الاسراء-٦٩)

وقوله تعالى:

[وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ] (الحج-٣١)

وما جاء في المعنى نفسه من خطبته في ذكر اصحاب رسول الله اذ قال:

" لَـقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ.. إذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءَ الثَّوَابِ"[٥٧]

في قول الإمام تشبيه -تمثيلي- وتصوير لحال اصحاب الرسول فهم يتحركون اضطراباً لذكر الله كما يضطرب الشجر بفعل الريح العاصف، وهكذا فالإمام لايحيد بالمفردة عن معناها الذي وردت عليه في القرآن، حاملة لمعنى واحد فقط وهي نسائم خيرة طيبة، ((فالرياح)) و ((الريح)) من الدلالات الجديدة التي وضعها القرآن الكريم[٥٨].

ان أسلوب القرآن ((يتأنق في أختيار الفاظه، ولما بين الالفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وان كل كلمة أخرى، لاتستطيع توفية المعنى الذي وفت به اختها))[٥٩].

كما ندرك دقة الاستعمال القرآني للفظة ((العيون، والأعين)) ((فلم يستعمل العيون الا لعيون الماء ... في حين جمع العين الباصرة على أعين))[٦٠]. والاخيرة هي ما جاء بها الإمام كما ورد معناها في آي الذكر الحكيم كما في قوله تعالى:

[الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا](الكهف-١٠١)

وقوله تعالى:

[قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ](**الاعراف-١١٦**)

وقوله تعالى :

[لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ] (المائدة-٨٣)

لقد كانت الدقة في استعمال ألفاظ القرآن، قمة الأدب والفن، وعلى هديها سار الإمام في تعبيره بين طيات خطبه الحربية، حتى عدَّ إمام البلغاء، لأن من تأثر بالقرآن فأنما يتأثر بأعلى درجات فن القول في اللغة العربية، واذ إستقام له ذلك، تفجرت البلاغة بين يديه، وهكذا كان الإمام. فمن خطبته في استنفار الناس وهي في عتاب اصحابه وتقريعهم، اذ قال:

---

(٥٥) ظ: سورة الشورى/ ٢٨، لقمان/ ٣٤، الحديد/ ٢٠.
(٥٦) الأولى: تعني الريح الضارة، والثانية: تعني الرائحة الطيبة، الثالثة: تعني القوة والبأس. ظ: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ٥١١.
(٥٧) نهج البلاغة: ١/ ١٨٩، ١٩٠ .
(٥٨) ظ: التعبير القرآني: ١٧.
(٥٩) بلاغة القرآن الكريم: ٥٧.
(٦٠) التعبير القرآني: ١٨.

"إذَا دَعَوْتُكُمْ إلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ"[٦١]
ومن خطبة أخرى في صفة اصحاب الرسول اذ قال:
" لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ" [٦٢]

جاء في النص الأول ((بدوران الأعين)) كناية عن اضطرابها من الجزع، وفي الثاني، كناية عن صفة اصحاب الرسول والمعنى أنهم يطلبون السجود، فلا يشغلهم شيء عن التعبد لله فهم لاينامون الليل فلا تغمض عيونهم لأجل ذلك.

وقد استعمل القرآن الكريم الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الدقة، فالكلمات السابقة الذكر كانت اسماء وهي تدل على الثبوت والاستقرار، اما الأفعال فتدل على الحدوث والتجدد وهذا ما وردت عليه جميع أفعال القرآن الكريم فمن الدقةالقرآنية في استخدام الالفاظ المستعارة، أنّه استخدم الفعل ((صبّ)) وهي ((مؤذنة بالشدة والقوة معاً))[٦٣] ففي قوله تعالى:

[وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠)الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ (١١)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ (١٢)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ] (الفجر١٠-١٣)

ووردت عند الإمام علي، ((صبّ)) في المعنى نفسه -القوة والشدة- من كلام له في الخوارج، قال:
"أَمَّا لَوْ أَشْرَعَتِ الأَسِنَّةُ إلَيْهِمْ ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ" [٦٤]

فلم يخرج الإمام عن المعنى الذي وضعه التعبير القرآني بينما نجد القرآن يستخدم ((افرغ)) وهي ((توحي باللين والرفق عند حديثه عن الصبر))[٦٥]، فالقرآن يمنح الصورة حساً بما يزيدها قوة، ومن ثم تمكن لها في النفس، والامام اخذ بروعة القرآن فآمن به وأحب بيانه وسحره الخارق، فضلاً عن تعاليمه وروحه الجديد، فقد عمد إلى تلك الالفاظ الحكيمة.

٣- الالفاظ المتقابلة في الايات القرآنية:

توجد في القرآن ((معان لاتكاد تفترق، مثل الصلاة، والزكاة، الجوع والخوف، الجنة والنار، الرغبة والرهبة...))[٦٦]، ففي القرآن كثير من الألفاظ، تشع منها معاني توحي إلى النفس بالفكرة ايحاءاً قوياً، فضلاً عن استعمال الإمام لهذه المعاني بنفس طريقة استعمال القرآن لها، وكانت على التوالي:

الرعد والبرق، القبض والبسط ، القائم والحصيد، الحق والباطل.

ففي ((الرعد والبرق)) قوله تعالى:
[أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَبعَهُمْ فِي ءاذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَفِرِينَ] (البقرة-١٩)

وقد عُد ذكر الرعد والبرق في آي الذكر الحكيم من زواجر القرآن[٦٧]، وهو ((مشهد غني بضخامة التمثيل

([٦١]) نهج البلاغة: ٨٢/١.
([٦٢]) م.ن: ١٨٩/١، ١٩٠.
([٦٣]) بلاغة القرآن: ٢٢٠.
([٦٤]) نهج البلاغة: ٢/ ١٠٢.
([٦٥]) بلاغة القرآن: ٢٢٠، ظ: سورة البقرة: ٢٥٠، الأعراف: ١٢٦.
([٦٦]) البيان والتبيين: ٢٠/١.
([٦٧]) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥٧/١.

والتصوير، ورعب الأضواء الكاشفة، انصب في مناخ يسرد البعد النفسي لفرغ المنافقين وحيرتهم، فهم في كزة من الأضطراب كمن قذفته السماء بمطر متقاطر تدفعه ظلمات عاصفة، باصوات الرعد، ولمعان البرق))[68]. وفي هذا المعنى جاء بها الإمام في خطب الحرب، ففي خطبته التي بها يصف خصومه من اصحاب الجمل، اذ قال:

"وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هذَيْنِ الأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ"[69]

على الرغم من أن الرعد والبرق يحدث في وقت واحد فانّ التركيز على الرعد آتٍ من أن الانسان قد يرعبه صوت الرعد حتى ولو كان نائماً فيستيقظ، أما البرق فهو بحاجة إلى النظر، وقد لا ينظر الانسان إلى السماء في أي وقت، اما الرعد فيسمعه أراد أم لم يرد ذلك، ولذا جاء هذا التقديم في القرآن وكلام الإمام الرعد والبرق اللذين ذكرهما دلالة على الوعيد والتهديد وفي هذا المعنى وصف لحالهم في أنهم لايقدرون على فعل شيء، وأن فعلوا فلا شيء وراءه، فقد وردت على سبيل الاستعارة التصريحية.

أما في معنى ((القبض والبسط)) على التوالي كقوله تعالى :

[مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] (البقرة-٢٤٥)

أي أن الله سبحانه وتعالى ((يقبض الرزق عن أقوام بأن يقتره عليهم ويبسط الرزق على أقوام بأن يوسعه عليهم))[70]، أي ان الله سبحانه وتعالى يتصرف بالارزاق كما يشاء ويقدر، وفي معنى التصرف جاءت في خطب الحرب للإمام من خطبة له عندما تواترت الأخبار بإستيلاء اصحاب معاوية على اليمن، اذ قال:

"مَــا هِيَ الاَّ الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا"[71]

فقد استعار القبض والبسط للدلالة على تمكنه من التصرف بها من جهة الادارة والاستيلاء وحسن التصرف على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومن المعاني التي تكاد لاتفترق في آي الذكر الحكيم كلمتا ((قائم وحصيد))، كما ورد في قوله تعالى :

[ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ] (هود-١٠٠)

قصد سبحانه وتعالى ان هذه القرى منها ما هو ((قائم)) بالعروش والمباني ومنها ما هو ((حصيد)) تعبيراً بالكناية عن الخراب، أي ما سقطت مبانيه فلم يعد له أثر، وعلى هذا المعنى وردت كل من قائم وحصيد في احدى خطب الملاحم للإمام اذ قال:

"هذا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكوفة مِنْ قَاصِفٍ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ، وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ"[72]

قصد الإمام المعنى نفسه في الآية الانفة الذكر، وقد جاء بها ليرسم صورة الفتنة فهي ((تدمر البناء القائم، وتجعله أثراً بعد عين، وتمحو آثار الأولين من الوجود))[73]، وفي كلام الإمام كناية عما بقي من الصلاح قائماً وحصيداً، وحتى ما حصد منه يحطم.

ومما أنتقاه الإمام من الالفاظ الثنائية، كلمتا ((الحق والباطل)) وقد وردت كلمة الباطل تقابلها كلمة الحق في اثنتي عشرة آية، وفي جميع هذه الآيات كان يعني ((الباطل في الاسلام هو الجهد الضائع والعمل الخاسر والاعتقاد الزائف لانه نقيض الحق، والحق هو الدين الباقي والشرع الخالد))[74]، منها قوله تعالى :

[وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] (البقرة-٤٢)

وقوله تعالى :

[لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ] (الانفال-٨)

---

(٦٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٢٩٢، ٢٩٣.
(٦٩) نهج البلاغة: ٤٢/١.
(٧٠) مجمع البيان: ٣٤٩/٢.
(٧١) نهج البلاغة: ٦٤/١.
(٧٢) نهج البلاغة: ١٩٥/١.
(٧٣) في ظلال نهج البلاغة: ٢/ ٩٥.
(٧٤) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ٣٣١.

وقوله تعالى :
[وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَطِلُ إِنَّ الْبَطِلَ كَانَ زَهُوقًا] (الاسراء-٨١)
وقوله تعالى :
[بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ] (الانبياء-١٨)
وعلى هذا الأساس جاء بها الإمام ليؤكد للخارجين عليه، اعتقادهم الزائف، وانهم على نقيض من الحق بقوله من خطبة له في نقد وتعريض لهم، اذ قال:
"فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ"[٧٥]
ومرة أخرى يقول :
"وَأَيْمُ اللهِ لأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ"[٧٦]
لقد جاء الحق والباطل في كلا النصين على سبيل الاستعارة التمثيلية، وكأن الحق لايعرف الا اذا كان هناك باطل، والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي ((فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، والا اختل وانهار))[٧٧].

٤- الافادة من التركيب الجملي في القرآن:

لقد وقع الإمام تحت تأثير القرآن حتى تسرب إلى نفسه متوغلاً في وجدانه، مؤثراً فيه، وكان من جراء ذلك أن تأثرت خطبه بصورة عامة، وخطب الحرب، خاصة، بالاسلوب القرآني، حتى أصبحت تلك الخطب أثراً من الآثار الفنية فضلاً عن كونها وسيلة للأقناع والتأثير.

ولقد مال القرآن إلى ناحية التصوير، فنراه يعبر عن المعنى المعقول بالفاظ تدل على محسوسات، فضلاً عن أن تصوير الامر المعنوي، في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً من النفس وتأثيراً فيها، فـ ((التصوير هو الاداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، او الحركة المتجددة))[٧٨]، وهذا ما انتهجه الإمام في خطب الحرب اذ استمد معانيه وافكاره من معين القرآن، في اسلوبه الرائع من تشبيه وتمثيل ومجاز واستعارة وكناية، فقد وردت عناصر الأداء البياني في التعبير القرآني على نهج طبيعي.

فالتصوير الخاص بالتركيب جاء في دقة التشبيه وروعة في المجاز، وبلاغة في الكناية، فما جاء في تشبيهاته مأخوذ من منهل القرآن، وكما نعلم بأن التشبيه هو وجود صلة بين أمرين، والغرض منها هو الوضوح والتأثير، لأن الإمام يدرك ما بين الاشياء من صلات يمكن أن يستعين بها في توضيح شعوره فـ ((ليس الحس وحده هو الذي يجمع بين المشبه والمشبه به في القرآن، ولكنه الحس والنفس معاً، بل أن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى))[٧٩].

وهناك خصائص للتشبيه في القرآن، استمد الإمام منها اسلوبه في خطبه الحربية وهي[٨٠]:

١- أن القرآن كان يستمد عناصر التشبيه من الطبيعة، فمن نباتها وجمادها وحيوانها، فضل ومنزلة في نقل الفكرة وتصويرها وهو سر خلود القرآن منها قوله تعالى :

[وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] (النور-٣٩)

ابلغ تصوير ورد في القرآن فهو ((ابراز لأعمال الكافرين، وكشف لدخائلهم وانقطاع لآمالهم، فها هي قرباتهم كالشعاع المنتشر في الصحراء يتخيله الظامئ - وهو بأمس الحاجة إلى الماء- ماء، ولكنه استماع كاذب، لاح على

---

(٧٥) نهج البلاغة: ٨١/١.
(٧٦) نهج البلاغة: ٢٠٠/١.
(٧٧) بلاغة القرآن: ١٠٥.
(٧٨) التصوير الفني في القرآن: ٢٩.
(٧٩) بلاغة القرآن: ١٩٢.
(٨٠) ظ: م.ن: ١٩٦.

بسيط من الأرض في صحوة من نهار، ووهج من قيض، واذا به خلب كالضباب لم يجد عنده شيئاً يروي غلته، واذا به يصطدم بالمفاجأة الكبرى، والحقيقة التي لم يحسب لها حساباً، ولم يشغل بها بالاً، فهو قد وجد الله بانتظار جزائه، وكشف حسابه، وبسرعة مذهلة وحركة خاطفة، يوضع الميزان، وترفع الأعمال، وتتميز الصحائف، واذا بالزبانية تقوده إلى النار))[٨١].

مما جاء به الإمام متمثلاً بقوله تعالى السابق من كلام له لاصحابه في ساحة الحرب يحثهم على القتال، اذ قال:

"الرَّائِحُ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي"[٨٢]

وهكذا نرى أن التشبيه في القرآن يكون بتشبيه الشيء بالشيء في صورته وفي حركته وفي لونه وطبعه، وكل منها متحد بذاته، واقع من بعض جهاته[٨٣].

ومن عناصر التشبيه في الطبيعة هو الحيوان فقد ورد ذكره في القرآن الكريم، منه قوله تعالى :

[أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً] (الفرقان-٤٤)

وقوله تعالى :

[ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١)لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢)فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ (٥٤)فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ] (الواقعة/٥١-٥٥)

كما ورد هذا التشبيه في خطب الحرب للإمام فقد اشار الىاحوال الانعام، فهي قوية، وهزيلة، عطشى ومرتوية، حنونة وعطوفة...بكل احوالها، وجعل هناك صلة بين صفاتها وصفات الانسان سواء كانوا من اصحابه أو اعدائه.

فقد شبه الإمام تزاحم الناس على بيعته بتزاحم الابل العطاش التي تقصد الورد، اذ قال:

"فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا"[٨٤]

وتارة يشبه حال بعض أهل الكوفة، بالأبل الضالة، اذ قال:

"مَا أَنْتُمْ إلا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ"[٨٥]

٢- المقدرة الفائقة في أختيار الالفاظ الدقيقة الموحية، منه قوله تعالى :

[يَبَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَرِي سَوْءتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ] (الأعراف-٢٦)

لباس التقوى هو لباس الايمان والعمل الصالح، والورع، وأتقاء معاصي الله سبحانه وتعالى، وهو الدرع الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله، على حد قوله تعالى ((ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)).

وقد جاء الإمام بهذا التركيب من قوله في خطبة له يحث فيها اصحابه على القتال، اذ قال:

"أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، ودِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ"[٨٦]

قد جاء بهذا التشبيه البليغ ليؤكد بأن الجهاد هو التقوى نفسها، وعلى هذا فقد كان التشبيه في القرآن ((فيه من التأثير في العاطفة، فترغب أو ترهب، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه، الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً ويصور وقع الدعوة على قلوبهم، وماكانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والأعراض))[٨٧].

وقد ورد التشبيه في خطب الحرب للإمام حاملاً لكل هذه المعاني فقد كان يريد التأثير في نفوس أصحابه، فيأتي به - التشبيه- كي يثبت الفكرة في النفس، ويبقى يلمح لها من عدة زوايا في اهداف خطبه سواء كان حثاً على القتال او نقداً و تعريضاً أو تهديداً و إنذاراً..

([٨١]) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٢٨١.
([٨٢]) نهج البلاغة:٤/٢.
([٨٣]) ظ: الجمان في تشبيهات القرآن:٤٣.
([٨٤]) نهج البلاغة: ١٠٣/١.
([٨٥]) م.ن: ٨٣/١.
([٨٦]) نهج البلاغة: ٦٧/١.
([٨٧]) بلاغة القرآن: ٢٠٤.

كثير ما يجتمع التخييل والتجسيم والتشخيص[٨٨]، في القرآن الكريم فيبدو الأمر المعنوي محسوساً ملموساً، ففي قوله تعالى :

[بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ] (الانبياء-١٨)

هنا يقذف الله بالحق على الباطل فيذهبه ويبقى الحق شامخاً، فـ ((القذف والدمغ)) الواردتان في الآية مستعارين وهما محسوسان والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان، وقد وردت عند الإمام بالمعنى نفسه، ففي خطبته عند خروجه لقتال أهل البصرة في وقعة الجمل، قال:

"أَمَا وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، مَا ضَعُفْتُ وَلا جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسِيرِي هذَا لِمِثْلِهَا، فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ"[٨٩]

ومرة ثانية يقولها موبخاً الخارجين عليه، فيقول:

"وَايْمُ اللهِ لأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ"[٩٠]

قول الإمام هذا متمثل بما ورد في آي الذكر الحكيم فقد جاء بالمعنى - التركيب - ولكن بصياغة جديدة، اذ مثل الباطل، بكائن أو بهيكل، متضمن ((للحق)) أو حاوياً عليه وفي كلا النصين جاء بالفعلين ((انقبنّ، وابقرنّ)) وكلاهما يوحي بالقوة التي يستعملها الإمام بالصيغة الفعلية- يخرج و اخرج- الدالة على الحركة والتجدد.

وهنا الإمام يضرب الباطل ليخرج الحق الا اذا قلنا أنه يضرب الباطل بالحق- أي حقه هو- فيخرج الحق الواضح الذي التبس على بعض اصحابه.

ومرة أخرى يأتي بصورة مرادفة من القرآن الكريم ليوضح فكرته لأصحابه من آيات الذكر البيّنات فمن قوله سبحانه وتعالى:

[وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَلِ وَالأَولدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَنُ إِلاَّ غُرُورًا] (الاسراء-٦٤)

وكأن الباري عز وجل يخاطب أبليس بأن يعدّ لبني آدم ما يستطيع ويجلب[٩١] عليهم من خيله ورجله كي يغرر بهم، وما يعدهم الشيطان الا غروراً، وقد وردت هذه الجملة القرآنية في احدى خطب الحرب للإمام لترسم لنا الصورة نفسها، اذ قال:

"أَلا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ، قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجْلَهُ"[٩٢]

فقد جاءت الاستعارة هنا مرادفة لما جاءت عليه في الآية السابقة، وقد عنى بالشيطان هنا أهل صفين، واصحاب الجمل، لأن كلاً منهما، جمع حزبه واستجلب خيله ورجله لحرب الإمام.

ان الأدب في أنبل نماذجه، يجمع بين المشاعر والألفاظ وتأتي النفس لتعبر عن تلك المشاعر بما يجانسها من الالفاظ فـ ((القرآن يرسم في الخيال صورة ناطقة لاتقف عند الرمز الكنائي بل تجاوزه إلى التعريض، واذا كانت في الكناية تذكر اللفظ وتريد لازم معناه، فأنك في التعريض تذكر اللفظ وتلوح به إلى ما ليس من معناه لا حقيقة ولا مجازاً))[٩٣]، فالتعريض هو أن يذكر شيء يدل به على شيء لم يذكر واهم أغراضه، الذم، منه قوله تعالى:

[أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا] (الاحزاب-١٩)

هو وضع الجبان، التلفت يميناً وشمالاً، فتبدو عينه، كعين الذي نزل به الموت، يبقى بصره فلا يغمض، والله سبحانه وتعالى يصف الكافرين عند الحرب، اشح قوم وابسطهم لساناً وفي وقت اليأس اجبن قوم واخوفهم، وهذا ما جاء به الإمام في خطبته لأستنفار الناس إلى أهل الشام، اذ قال:

"أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ..إذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ

---

(٨٨) ظ: مباحث في علوم القرآن: ٣٢٥.
(٨٩) نهج البلاغة: ٨١/١.
(٩٠) م.ن: ١/ ٢٠٠.
(٩١) الجلب: هو ماسبق من الحيوان، ظ: مع نهج البلاغة:دراسة ومعجم: ١١٣.
(٩٢) نهج البلاغة: ٤٣/١.
(٩٣) مباحث في علوم القرآن: ٣٣٢.

فِي غَمْرَةٍ"[٩٤]

كان يخاطب اصحابه بصيغة العتاب والتقريع فقد كنى عن صفة جزعهم واضطرابهم، وفيه تصوير دقيق لما في نفوس بعض أهل الكوفة من الخوف والجبن لملاقاة جيش معاوية، فقد رسم صورة موحية وموجزة فقد وفى المعنى بالفاظ قليلة.

ومن الخطبة نفسها جاء بكلام آخر اقتبس صياغته من القرآن الكريم ومن المعنى ذاته ايضاً، اذ قال سبحانه وتعالى :

[أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ] (الرعد-٤١)

وجاءت مرة ثانية في قوله تعالى :

[بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ العُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمْ الغَلِبُونَ] (الانبياء-٤٤)

وقد قصد سبحانه وتعالى بقوله ((ننقصها من اطرافها)) أي أرض الكفر ينقصها بالظهور عليها من أطرافها، فيفتحها للنبي محمد بلداً بعد بلد، وقيل ننقصها بالقتل والسبي[٩٥]، وقد جاء بها الإمام متمثلاً، وقد قصد اصحابه المتقاعسين عن القتال، اذ قال:

"لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ، تُكَادُونَ وَلا تَكِيدُونَ، وَتُنْقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلا تَمْتَعِضُونَ"[٩٦]

جاء بها كناية عن النيل من اصحابه، فكلما امكنت اهل الشام فرصة منهم لاينامون عن أهل الكوفة المتخاذلين الساهين فيحتلون أرضهم ولايغضبون.

وهكذا فقد وجد من هذا التمثيل طريقة مؤثرة تدفع اصحابه إلى التفكير العميق.

وعلى هذا يمكن أن نجمل القول في فضل القرآن على خطب الإمام علي عامة وخطب الحرب خاصة ((فانك تجده مشتقاً من الفاظه، ومقتضباً من معانيه ومذاهبه، ومحذواً به حذوه، ومسلوكاً به في منهاجه؛ فهو وان لم يكن نظيراً ولا نداً، يصلح ان يقال أنّه ليس بعد كلام افصح منه ولا أجزل، ولا اعلى ولا افخم ولا أنبل، الا ان يكون كلام ابن عمه وهذا أمر لايعلمه الا من ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة وليس كل الناس يصلح لأنتقاد الجوهر بل ولا لانتقاد الذهب، ولكل صناعة أهل ، ولكل عمل رجال))[٩٧].

([٩٤]) نهج البلاغة: ٨٢/١.
([٩٥]) ظ: مجمع البيان: ٦/ ٣٠٠، ٧/ ٤٩.
([٩٦]) نهج البلاغة: ١/ ٨٣.
([٩٧]) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ٨٣.

المبحث الثاني

الحديث النبوي الشريف

١ - الاقتباس باللفظ
٢ - الاقتباس بالمعنى

تأثير الحديث النبوي

الحديث النبوي هو قول الرسول ، وهو جزء من السنة النبوية الشريفة لأنه مع فعل النبي وتقريره يكوّن السنّة التي تعد المصدر الثاني في التشريع بعد القران الكريم، فقد كان يفصل مجمل الكتاب، ويوضح مشكله، ويقيد مطلقه، ويخصص عامه، وبهذا ((يتفق القرآن والحديث وحياً، ومعنى، ويفترقان لفظاً ونظماً، وذلك فرق ما بين الكلام المعجز وغير المعجز))[٩٨].

وقد نشأ الرسول نشأة قرشية بدوية خالصة واسترضع في بني سعد بن بكر، وهي أفصح القبائل العربية، فأجتمعت له فصاحة اللسان واللغة[٩٩]، فقد كان أعذبهم أسلوباً وأروعهم حكمة، واصدقهم قولاً، وأوضحهم عبارة، كما لديه قدرة فطرية على ابتكار الاساليب العالية، ووضع الالفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية.

وقد منح الله عز وجل الرسول احاطة عظيمة، بلغة العرب، وشوارد الفاظها، وضروب فصاحة خطبائها، وبلاغة وعّاظها، وآتاه جوامع كلمها، وعرفه ايامها وأمثالها، فضلاً عن حكمها ومعاني اشعارها، فـ ((لم يسمع الناس بكلام قط أعّم نفعاً ولا أقصد لفظاً، ولا اعدل وزناً، ولا اجمل مذهباً، ولا اكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ولا ابين في فحوى، من كلامه))[١٠٠]، ولما كان الرسول يتحدث بتأبيد إلهي ((وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى))[١٠١]، فأنه لايمكن ان يقع بين احكام القرآن والسنّة تخالف أو تعارض، وعلى هذا فقد حازت السنّة النبوية الصحيحة من قلوب المسلمين ما للقرآن تقريباً من مكانة عظيمة.

لقد امتازت الاحاديث النبوية بأتساق عباراتها، لأداء معنى واضح معين، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، فضلاً عن إغنائه لغتنا العربية بصياغات محكمة من الفاظ وتراكيب. ولـ ((مدرسة النبوّة ورعاية الرسول لعلي، كان لها أثرها في بناء هذه الذات، ..وكان لصحبته أثرها النفسي، فاستفاد اكثر من غيره، وأخذ أكثر من غيره، وكان للمحيط اثره في نفس الإمام من حب الثقافة العربية التي ادركها ووعاها، وهو فوق ذلك ذو استعداد ذهني وذكاء رفيع، وقابلية نفسية ورغبة، وكانت النتيجة إن حصل له مالم يحصل لغيره، وما اخذه اوسع ثقافة وعلماً من غيره))[١٠٢].

لقد استعان الإمام علي بالاحاديث النبوية في توشيح خطبه، واضفاء الجمال الفني، وقوة التأثير فيها، كما استعان بالصور البيانية، والأوصاف التي وردت في كلام النبي حيث اراد التعبير عن معنى مشابه لها.

وقد أكد الإمام عن مدى أهيمة الحديث في احدى خطبه[١٠٣]. وما يرد على روايته من اشكال واقسام؛ فمنها ما هو حق وما هو باطل، أي ضعيف وصحيح، ناسخاً كان او منسوخاً، وعامّاً أو خاصّاً، ومحكماً او متشابهاً، ثم قسّم رواة الحديث على اربعة اقسام[١٠٤]:

أ) رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالاسلام.

ب) ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه.

ج) ورجل سمع من رسول الله شيئاً يأمر به، ثم أنّه نهى عنه .

د) واخر لم يكذب على الله وهذا ((عالم قدير كما هو راوٍ ثقة وخبير، يميز موارد الحقيقة والمجاز، وبيّن الحديث الواضح الذي لا يجوز تأويله بحال، والمشكل الذي يمكن تأويله بما يتفق مع العقل ومقاصد الشريعة...))[١٠٥].

لقد بدا الأثر النبوي في خطب الحرب للإمام واضحاً جلياً، كما بدا الاسلوب نفسه في استمداده لأيات القرآن الكريم، فهو يضع امام نصب عينيه الأصل سواء من القرآن والحديث النبوي، ثم يعمل على استخراج صيغ جديدة،

---

(٩٨) الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية: ١٥، ١٦.
(٩٩) ظ: الخطابة في صدر الاسلام: العصر الديني- عصر البعثة الاسلامية: ١/ ١٩٩.
(١٠٠) البيان والتبين: ٢/ ١٧، ١٨.
(١٠١) سورة النجم/ ٣-٤.
(١٠٢) الإمام علي ومدرسة القرآن: ٥٦.
(١٠٣) ظ: نهج البلاغة: ٢/ ١٨٨.
(١٠٤) ظ: م.ن: ٢/ ١٨٩، ١٩٠.
(١٠٥) في ظلال نهج البلاغة: ٣/ ٢٤٤.

مضيفاً إليها أو محوراً إياها، بما يناسب والظرف الذي كان يحيط بالامام □.
وقد كان اثر الحديث النبوي في خطب الحرب للإمام □ من خلال ما يأتي:

١- الاقتباس باللفظ.

٢- الاقتباس بالمعنى.

أولا: الاقتباس باللفظ:

لم يصرح الإمام □ بأقتباسه من كلام الرسول □على الرغم من تضمين النصّ نفسه في الأثر النبوي، اذ أنّ الإمام □ كان ((يرتضع افاويق العلم، ويحتسي كؤوسه المترعة من ينبوعه الفياض الطافح بالعلم النبوي الغزير المستمد من الله عز وجل، فقد أدّب الله محمد فأحسن تأديبه كما حدث عن نفسه بقوله ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)) وأدّب محمد علياً فأحسن تأديبه ايضاً، فكان محمد غرس الله، عَلمّه من علمّه، وأدّبه بأدبه، وكان علي غرس النبي علمه من علمه وأدبه بأدبه))[١٠٦].

والامام لم يكن يخطب لمجرد التعبير او ليضع الكلمة في معناها الحقيقي او المجازي او استعارة او كناية، وانما الواقعية عند الإمام هي الفلسفة الحقيقية، ففي خطبه □قدرة وتلقائية، وفي بيانه قوة، وفي كلامه فكرة.

وفي قول آخر للإمام □ من خطبة له يومئ فيها إلى ذكر الملاحم، اذ قال:

"ألا وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لاتَعْرِفُونَ- يَأْخُذُ الوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدهَا"[١٠٧]

وهذا الكلام مقتبس من حديث للرسول □ ذكر فيه اشراط الساعة، اذ قال:

((تَقِيءُ الأَرْضُ أَفْلاَذَ كَبِدِهَا، أَمْثَالَ الأُسْطُوَانَ مِنْ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ فَيَجِيءُ القَاتِلُ، فَيَقُولُ: فِي هذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيُء القَاطِعُ، فَيَقُولُ: في هذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَارِقُ، فَيَقُولُ: فِي هذَا قَطَعْتُ يَدِي ثُمَ يَدَعُونَهُ فَلا يَأْخُذونَ مِنْهُ شَيْئاً))[١٠٨]

أوجز الإمام □ حديث الرسول□ وكأن المقطع الذي اقتبسه الإمام من الحديث النبوي كافٍ لتبصير المسلمين وتذكيرهم ببقية الحديث، فمنهم من شهد الرسول□ وسمع منه هذا الحديث، فيعود إلى نفسه ليتذكر تفاصيل ذلك..

وقد عُدّ هذا الكلام من ((الاستعارة العجيبة، لانه□شبه الكنوز التي أستودعتها بطون الأرض بافلاذ الكبد، وهي شعبها وقطعها، لأن شعب الكبد من شرائف الأعضاء الرئيسة، فكذلك الكنوز من جواهر الأرض عند إخراجها))[١٠٩].

الإمام □ جاء بأساليب الصناعة فطرياً، واضاف لها وسائل الطبيعة الغنية، فبلاغته، هي نتيجة عقل نير بعيد الأغوار وثقافة دينية استقاها في صحبته للنبي□.

اقتباس آخر، يوحي للسامع أو القارئ عن حفظ الإمام □ وتشعبه بالحديث النبوي، اذ يأخذ الفاظاً ويترك أخر، فمن قوله □ وهويصف اصحاب رسول الله يوم صفين- حين أمر الناس بالصلح- مفتخراً بهم، قال:

"فَلَّما رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى أَسْتَقَرَّ الإسْلامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ"[١١٠]

وقد وردت ((استقر الاسلام ملقياً جرانه)) عن الرسول□، اذ قال:

((...يُلْقِي الإِسْلاَمُ بِجِرَانُه إلى الأَرْضِ...)) [١١١]

([١٠٦]) حياة أمير المؤمنين في عهد النبي : ٥٥.
([١٠٧]) نهج البلاغة: ٢/ ٢١، ٢٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديث: ٩/ ٤٦.
([١٠٨]) صحيح مسلم: كتاب الزكاة: ٢/ ٧٠١.
([١٠٩]) المجازات النبوية: ٢٢٦.
([١١٠]) نهج البلاغة: ١/ ١٠٥، ط: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٤/٤.
([١١١]) مسند أحمد: كتاب المهدي: ١.

كما وردت هذه العبارة في كلام العرب كثيراً و ((الجران باطن العنق، وقيل مُقدّم العنق من مذبح البعير إلى منحره، فاذا برك البعير، ومدّ عنقه على الأرض قيل القى جرانه بالأرض))[١١٢].

لاشك أن هذه الاستعارات الواردة في حديث الرسول من ابتداعه، وتبقى في اذهان الناس، ومن ثم استعملها الإمام ليعيد إلى الأذهان كلام الرسول اذ جعل ((الاسلام)) شيئاً محسوساً، له الارادة على الفعل وهو الاستقرار والغلبة فهو مجاز عقلي، و ((ملقي بجرانه)) كناية عن تمكن الاسلام وغلبته في النفوس.

ومن كلام أخر للإمام عندما عزم على المسير إلى الشام بعد حرب الجمل، قال:

"اَللّـهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ"[١١٣]

وهو دعاء دعا به عندما وضع رجله في الركاب، وقد ورد هذا الدعاء عن النبي اذ قال:

((اَللّـهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ))[١١٤].

فقد جعل النبي من ((السفر وشقته وتكاليفه بمنزلة الوعثاء التي قاطعها تعب والساري فيها نصب))[١١٥].

جاء الإمام بهذا الدعاء، تذكيراً للناس، ودعوة من الإمام للتخلق بالخلق النبوي من خلال التوجه إلى الله تعالى في السفر والدعاء به، والهدف من ذلك تربوي ايماني، يهدف إلى شد المؤمن إلى ربه وهو لايدري ما ينتظره في غيبه، وبهذا تحل الطمأنينة في النفس.

وهكذا فقد كان كلام الإمام مرآة لبعض ما ورد من أقوال الرسول وللمجتمع، نفساً وعقلاً وسلوكاً. وقد بدا واضحاً وجلياً احكام النسج بين اقوال الرسول وما جاء في خطب الحرب للإمام ((فالثناء على الإمام كالثناء على ضوء القمر المستمد من نور الشمس))[١١٦].

ثانياً: الأقتباس بالمعنى:

بلاغة الرسول وجوامع كلمه المأثورة؛ اذهلت ارباب النهى، فلم يكن ينطق إلا عن ميراث حكمة، وكان يشير إلى المعنى دون التبسط في ايضاحه، وعلى هذا نجد كثيراً من الصور البيانية التي أخذها الإمام عن الأثر النبوي، محوراً فيها، ومن ثم تبعث في النفس إحساساً وكأنها تطرق السمع لأول مرة.

ويقول من كلام له في اصحابه في ساحة الحرب، وهو يحثهم فيها على القتال:

"الرَّائِحُ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي"[١١٧].

ورد في الحديث النبوي الشريف من المعنى نفسه، اذ قال في وصية وصى بها أسامة بن زيد لما أراد بعثه إلى مؤتة، وقد ورد الحديث بالفاظ عدة والمعنى نفسه، اذ قال..

---

(١١٢) لسان العرب: مادة ((جرن)).
(١١٣) نهج البلاغة: ١/ ٩٦.
(١١٤) سنن ابي داود: كتاب الجهاد: ٢/ ٣٢.
(١١٥) المجازات النبوية: ١١٣.
(١١٦) علي والقرآن: ١٤.
(١١٧) نهج البلاغة: ٤/٢.

((الْجَنَّةُ تَحْتَ بَارِقَة السيْوفَ))(١١٨).

وقال ايضاً:

((يا أَيُّهَا النَّاس، لاتَتَمَنُّوا لِقَاءَ العَدو، وَأسْأَلوا اللهِ العَافِيَة، فَإذا لَقِيْتُمُوهُمْ فَأصْبِرُوا، وَأعْلَمُوا إنَّ الجَنَّة تَحْتَ ظِلاَلَ السِيُوفِ))(١١٩).

وحديث آخر:

((الْخَيّرُ كُلّهُ فِي السّيّفِ وتَحْتَ ظَلَّ السَيّفَ وّلايُقِيّمْ النَاسَ الا السَيِّفَ، وَالسِيّوف مَقَالِيدَ الْجَنَّةِ وَالنَّار))(١٢٠).

ان اقتباس الإمام لهذا المعنى، يوضح معنى أهمية الجهاد بوصفه سبباً في الوصول إلى الجنة عند الضرب به في سبيل الله، ثم هو تطمين لقلوب اصحابه بأنهم يسيرون على هدى الرسول في جهادهم، فالقول ((مجاز ...وليس الجنة تحتها- تحت السيوف- على الحقيقة، وإنما المراد ان الصبر تحتها لجهاد الكافرين ودفع أعداء الدين يفضي بالصابر إلى دخول الجنة ونزول دار الأمنة))(١٢١).

ومن قول أخر للإمام يذم فيه اتباع الشيطان:

"أتّخَذوا الشّيْطَانَ لأمْرِهِمْ مِلاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِألْسِنَتِهِمْ"(١٢٢).

قوله ((باض وفرخ، ودبَّ ودرج)) كناية عن توطنة الشيطان في صدور من يتبع اغواء الشيطان، وفي الوقت نفسه تكون استعارة للوسوسة والاغواء.

وقد ورد هذا في حديث الرسول في المعنى ذاته من وصيته لأمراء الجيش الذي بعثه إلى مؤتة، اذ قال:

"وَسَتَجِدُونَ آخَرِيّنَ لِلِشّيّطَانِ فِي رُؤُوسِهِمِ مَفَاحِصَ فَافْلِقُوهَا بِالْسيوفِ"(١٢٣)

وهذا كان وصف لشدة الارتكاس في الغي ((والمفحص في الأصل، الموضع الذي تبحثه القطاة لتجثم عليه أو لتبيض فيه، وانما قيل له مفحص لانها لاتجثم فيه الا بعد ان تفحص التراب عنه توطئه لمجثمهاوتمهيداً لجسمها))(١٢٤)، وقد ورد هذا الكلام عن العرب أيضاً.

---

(١١٨) شرح صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير: ١٢/ ١١٧.
(١١٩) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير:٣ / ١٣٦٢، ١٣٦٣.
(١٢٠) تهذيب الاحكام: كتاب الجهاد: ٦/ ١٢٢، الكافي: كتاب الجهاد: ٢/٥.
(١٢١) المجازات النبوية: ١٠٨.
(١٢٢) نهج البلاغة: ٤٢/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢٢٨/١.
(١٢٣) المجازات النبوية: ٥١.
(١٢٤) المجازات النبوية: ٥١.

كان الرسول افصح العرب، فهو لايتكلف القول ولا يقصد تزويقه، ولايجاوز به مقدار الابلاغ في المعنى الذي يريد ايصاله إلى السامع، وقد كان يستمد أحاديثه من تعاليم رسالته، ومنها تغذت اقواله واكتسبت ابعادها واعماقها.

ومرة أخرى يرفدنا الإمام من اقوال الرسول بالمعنى، من كلام له في اصحابه في بعض أيام صفين، وهو يحث على القتال، اذ قال:

"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ..."[١٢٥]

اراد الإمام ان يحث اصحابه، على ان يجعلوا من السكينة اشبه ما يكون بالجلباب القريب من الجسد، وهو من الاستعارات اللطيفة، فقد أبرز المعقول المجرد بصورة المحسوس الملموس.

وهذا ما جاء عليه الحديث النبوي الشريف حيث قال :

((وَلاَ قَلَّدَ اللهُ عَبْداً قِلاَدَةٍ خَيْرَاً مِنْ سَكِيْنَةٍ))[١٢٦]

وهنا جاءت السكينة، ايضاً قريبة من الجسد، والقلادة عادة تكون في العنق، فمكانتها اشبه بقربها من الجلباب فكلاهما يلامسان جسد الانسان، وعلى هذا نجد حديث الرسول ((يتغلغل في اعماق الذهن ليزرع الفكرة، وفي اغوار النفس ليخلق العاطفة، وفي محيط الامة ليوجه السلوك))[١٢٧].

قد انتفع الإمام بصياغة ما أثر عن الرسول فكانت المعاني محكمة صادقة والبصيرة نافذة، فضلاً عن الالهام الذي وهبه الله اياه.

يقول الإمام من خطبة له يصف فيها اصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام، وهو يحثهم فيها على القتال:

"وَقَدْ قَلَّبْتُ هذَا الأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إلا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَنِي بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.."[١٢٨]

كانت الاستعارة هنا أقدر على تجسيد ما كان يريده فقد نظر في هذا الامر وتدبره ملياً، ودرسه بدقة وامعان من شتى جهاته.

وقد أخذ الإمام هذه الصورة البيانية من الأثر النبوي الشريف اذ قال:

((أُنْزِلَ الْقرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أحْرُفْ لِكُلِّ آيَة ظَهْرٌ وَبَطْن)) [١٢٩]

الكلام مجاز، فلا ظهر للآية ولا بطن على الحقيقة، وانما ((المراد ان لها فحوى وظاهراً وسراً وباطناً...وهذا القول ينصرف على الآي المتشابهة دون المحكمة... والمتشابهة، هي التي يستعمل فيها النظر ويعمل فيها الفكر))[١٣٠].

نجد الإمام يعتمد على المعاني ذاتها التي أشار إليها الرسول في احاديثه الشريفة، وأخذ يولد منها صوراً جديدة، بالفاظ جديدة، ولكنها بالتالي تأتي مطابقة للأثر النبوي الشريف.

من ذلك قوله في يوم حنين لما رأى مجتلد القوم :

((الأنَ حَمِيَ الْوَطِيْسَ))[١٣١].

وهذا مالم يسمع به من احد قبل الرسول وهو مجاز من باب الاستعارة، فقد شبه الحرب بالنار لحر مواقع السيوف، ولشدة العراك، وكثرة الحركة، ولأنها تأكل الرجال كما تأكل النار الحطب.

اخذ الإمام هذه الاستعارة واشتق منها او صاغ على منوالها صورة اخرى من المعنى نفسه حينما قال في اصحابه واصحاب رسول الله:

"وَاللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيماً إخَالُ، أنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى وَحَمِيَ الضِّرَابُ، وَقَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأةِ عَنْ قُبُلِهَا"[١٣٢].

([١٢٥]) نهج البلاغة: ١١٤/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١٦٩/٥.
([١٢٦]) سنن ابي داود: كتاب المقدمة: باب ٣٤.
([١٢٧]) نحو أدب اسلامي: ٣٣.
([١٢٨]) نهج البلاغة: ١/ ١٠٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٦/٤.
([١٢٩]) المجازات النبوية: ٤٩.
([١٣٠]) م.ن: ٤٩.
([١٣١]) م.ن: ٤٤.
([١٣٢]) نهج البلاغة: ١/ ١٨٩.

المعنى في قول الإمام يلتقي كثيراً مع قول الرسول الكريم فـ ((حمي وحمس)) يعطيان معنى الشدة والصلابة وبين ((الوطيس والوغى)) تعطي معنى الفوران والجلبة[١٣٣]، والمعنى الجديد ((حمي الوطيس)) ورد ما يقابله من معنى جديد ايضاً، جاء به الإمام بقوله ((حمي الضّراب)) أي اشتد وقع السيوف، او الضرب بها.

تجد ما نقل من كلام النبي على جهة الصناعة البيانية ((حسن المعرض، بيّن الجملة، واضح التفصيل ظاهر الحدود، جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الاشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لاترى فيه احالة ولا استكراهاً، ولاترى اضطراباً ولا خطلا، ولا استعانة من عجز، ولا توسعا من ضيق، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه))[١٣٤].

من حديث للرسول تحدث فيه عن فضل الجهاد، ومكانته، قال:

((...قَالَ: سُئِلَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّىَ اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أيُّ الأعْمَالِ أفْضَل وَأيُّ الأعْمَال خَيّرٌ، قَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُوْلَهُ، قَالَ: ثُمَ أيّ ، قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ سِنَامُ العَمَل، قَالَ: ثُمَ أيُّ يَارَسُولَ اللهِ، قَالَ: حَجٌ مَبْرُورٌ))[١٣٥].

قوله الجهاد في سبيل الله سنام العمل، يقصد من خير الاعمال في الدنيا بعد الايمان بالله ورسوله، وقد جاء الإمام بصيغة جديدة. بعد أن ارتوى من اقوال الرسول ما يجعله مبدع في تعبيره، اذ قال يصف اصحاب رسول الله، وذلك يوم صفين حيث امر الناس بالصلح:

"وَلَعَمْرِي لَوْ كُنّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلا اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ"[١٣٦].

ان سنام العمل هو الجهاد، ولايقوم الدين ولا يخضر الايمان ألاّ بسنام العمل، وهو الجهاد، فمن خير الاستعارات التي جاء بها لبيان فضل الجهاد وأهميته، هذه الاستعارة النابضة بالحس والحركة والحياة.

مرة أخرى يأتي الرسول الكريمبصورة بيانية جديدة واصفاً فيها الاسلام، قال:

((تَدُورُ رُحّى الإِسْلاَمَ عَلَى رَأسِ خَمْسٍ وَثَلاَثِيْنَ..))[١٣٧].

اذ شبه الاسلام بالرحّا القائمة على قطبها ((ودور الرحا يكون عبارة عن حالين مختلفين: احدهما مذمومة، والأخرى محمودة.. كان دور الرحا فيها محموداً لمن دارت له، ومذموماً لمن دارت عليه ..))[١٣٨].

جاء الإمام موظفاً التشبيه نفسه، من كلام له حيث جمع الناس وحضّهم على الجهاد، فقال:

"إِنَّمَا أنَا قُطْبُ الرَّحَى تَدُورُ عَلَيَّ وَأنَا بِمَكَانِي، فَإذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا، هذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأيُ السُّوءُ))[١٣٩].

تشبيه بليغ جاء به الإمام اذ شبه نفسه بقطب الرحى أي مركزها في ثباته وعدم تزعزعه عن الحق، ونصرته والدعوة اليه، ولعله كنّى بالرحّى عن امر الخلافة، والامام قطب الرحى في معرفة الاسلام وحقائقه،

---

(١٣٣) ظ: لسان العرب: مادة ((حمي)) ، ((حمس))، ((وطس)) ، ((وغى)) .
(١٣٤) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣٥٩.
(١٣٥) مسند أحمد : كتاب الجهاد: ٢/ ٢٨٧.
(١٣٦) نهج البلاغة: ١٠٥/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤/ ٣٤.
(١٣٧) مسند أحمد: كتاب الأذكار: ٧ / ٣٩٠.
(١٣٨) المجازات النبوية: ١٢٢.
(١٣٩) نهج البلاغة: ١/ ٢٣٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ٢٨٦.

وعلومه، ويؤيده قوله□ بالنسبة للخلافة :

"أنَّ مَحلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ"(١٤٠).

الإمام □ كان يخرج بالافكار مهما كانت عميقة في روعة من الرونق والجمال، ومن ثم كانت خطب الحرب للإمام ذات مستوى رفيع وبليغ بفضل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مما جعلها ترتقي إلى مستوى فني وثقافي، فضلاً عن ان الإمام كان يدرك الحقائق بوضوح، ويعتقدها بصدق، ويحرص على اذاعتها بين اصحابه، لذا نجد في عباراته داخل خطبه صدى ناتجاً من قوة الاخلاق، وصدق العقيدة، وصحة الفهم وبعد اغواره.

ندرك تماماً أن للحديث اثراً بالغاً في بناء الحضارة الاسلامية وفي اغناء العربية من وجهين: الأول: اللفظ بنقله من معنى إلى آخر، وهو ما نعنيه بـ (المجاز)، والثاني: وضع اللفظ وضعاً بعد ان لم يكن وهو ما يدعى بـ(الارتجال)(١٤١). وعلى هذا الاساس كانت افكار الإمام□ اسلامية نابعة من ذهنية اسلامية، صاغها أدب القرآن والحديث.

(١٤٠) نهج البلاغة: ١/ ٣٠، ٣١.
(١٤١) ظ: الحديث النبوي الشريف واثره في الدراسات اللغوية والنحوية: ١٢٣.

لقد اقتبس الإمام من الحديث لفظة وانتفع بصوغه، واستمد تراكيبه وبيانه من إثر الرسول من اسلوبه ((فهو السهل الممتنع والبلاغة القريبة البعيدة والفصاحة المعجزة الرائعة، والنمط الغريب، والطريقة المحكمة، والنظم العجيب))[١٤٢]، والاقتباس هو دليل على معرفة الإمام وحفظه وأدراكه لأحاديث الرسول، فقد كان يهدف إلى التذكير بالتزامه بمنهج الرسول وموازنة حال أصحابه بحال اصحاب الرسول .. فجاء الإمام من المعاني ما هو حكيم وصادق ورفيع ورأي ناضج، فضلاً عن سمة العبقرية التي وهبها الله سبحانه وتعالى له، ومن ثم ظل الحديث النبوي الشريف مورداً عذباً من الثقافة الأدبية على توالي العصور.

([١٤٢]) الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام: ٦١.

المبحث الثالث

الشعر العربي

الشعر العربي

احدى صور الحياة ومرايا النفوس، يعبّر عما يختلج في الضمير، وينطق بما تقدمه البيئة من عادات واخلاق، وقد كان - الشعر- حافلاً بالمعاني والدلالات والتي يمكن اعتمادها وثيقة تاريخية فـ ((لا تعرف انساب العرب وتواريخها، وأيامها، ووقائعها، الا من جملة اشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها، ومستنبط ادابها، ومستودع علومها))[١٤٣]، فضلاً عن ان اللغة التي كتبت فيها الأدب الجاهلي عامة، هي اللغة المثالية الموحدة والتي غلبت عليها لهجة قريش.

ولمّا كان للشعر تأثير في نفوس العرب وصقل لمشاعرهم لما تتسم به لغته من الحذق والمهارة، صار له كبير الاثر في توجيه عواطفهم وافكارهم، وما برع من الشعر، هو ((ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة، والتشبيه الواقع، وما سوى ذلك، فإنما لقائله فضل الوزن))[١٤٤].

وللشعر الجاهلي قيمتان، فنية وتاريخية[١٤٥]، فقد كان الشعراء يستعينون بالالفاظ والاساليب المصورة التي تجعل المنظر بارزاً ناطقاً، فتؤازر هذه الظاهرة ما يذكرونه من الوان المجاز والتصوير ومن ثم تبرز الصورة المؤدية غرضها من التوضيح والتاثير في آن واحد، مما حرى بالصورة ان تحتل مكاناً رفيعاً، نتيجة تزاوج براعة التصوير ونبل المعنى.

جاء الاسلام، والقرآن، والحديث النبوي، فتح كل منها للأدب العربي افقاً جديداً بما اتى به من معانٍ جديدة، واصبحت سبل الاداء القديمة لم تعد تقوى على النهوض بالافكار الجديدة فقد بدلت الدعوة الاسلامية الكثير من المفاهيم التي الفها الناس واعتادوا عليها، فـ ((كان في كلام الله وحديث نبيه سيل منهمر من المعاني، ومادة واسعة من الاساليب وسمط منظوم من الالفاظ، فكان كل ذلك قدوة للعرب حسنة، هجروا به حوشيهم من اللفظ، ومعقدهم من الاساليب وسفسافهم من المعاني))[١٤٦].

كان جل عناية العرب في جاهليتهم، الشعر يحفظونه ويروونه، فلما جاء الاسلام، صارت الدولة للنثر، فالشعر غالباً ما يخاطب العاطفة، والنثر يخاطب العقل، ومن ثم كان الاتجاه يمضي نحو النثر متمثلاً في الدرجة الأولى في الخطابة، فكانت ابلغ من الشعر في حسن التمثيل والتعبير والأداء[١٤٧].فقد رفع الاسلام من شأن العقل، وخفض من غلواء العاطفة ودعوته إلى الاقناع بالمنطق والحجة، والقول الصادق المبين، وقد علا شأن الخطابة بعد ذيوع آثار بلاغة القرآن، والحديث النبوي، في النفوس والعقول والاذواق و((مما يعرف من الخطابة والكتابة انهما مختصان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار، وليس للشعر بهما اختصاص))[١٤٨]، ومن الطبيعي ان ينصرف الاسلام عن الشعر الذي يناهض الدين ويعارضه، ومن ناحية أخرى نجده-الاسلام- يغذي الشعر الملتزم في الدفاع عن العقيدة، وجعله أداة من أدوات الدعوة في التعرض للخصوم، ولكن هذا الشعر لم ينفرد بخصيصة فنية أو جمالية تربو على الشعر الجاهلي، ومن ثم، اخذ يهذب ويسمو، لاتصاله بالأصول الاسلامية والفضائل الخلقية.

نجد الخطبة الحربية تحمل في طياتها شيئاً من روح الشعر، لأثارته كوامن النفس عند اصحابه بجانب مقتضيات العقل، فضلاً عن اقتباسه من القرآن الكريم والحديث النبوي.

تمكن الإمام بأصالة، ان يوفق بين القيم الايجابية المتوارثة، والمثل الدينية الجديدة، وبين الواقع الجديد المترامي في ابعاده والضارب في اعماقه، فضلاً عن ((ملكة الكلام ومعرفة بديهية بوسائل التعبير وأساليب الفن مما جعل نثر علي خزانة جمعت بين الطبع والصنعة جمعاً شديداً حتى لاتكاد لا تتميز الصنعة عن الطبعة لحسن تمازجها وتألفهما، ولحسن تأثر هذا بتلك، فمقدرة الرجل غنية بوسائل الابلاغ التي يعمد إليها عن غير اجهاد عقل، ويقصد إليها

---

(١٤٣) كتاب الصناعتين: ١٤٤.
(١٤٤) العمدة: ١/ ١٢٢.
(١٤٥) ظ: تاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري: ٥٨.
(١٤٦) الأدب العربي في الجاهلية والاسلام: ١٣.
(١٤٧) ظ: الظاهرة الأدبية في صدر الاسلام والدولة الأموية: ١٤٩.
(١٤٨) كتاب الصناعتين: ١٤٢.

قصداً للتقرير، فتأتي التشبيهات والصور والامثال والاستعارات... وكأنها من وحي الخاطر والطبع، ومن مقتضيات المعنى الذي يختلج في الصدر وتبعثه عقيدة قوية، كل ذلك في لغة جاهلية صقلها ولينها العهد الجديد والحضارة الجديدة))(١٤٩).

كان الشعر في حروب الامام من الاسلحة التي استعملها كلا الفريقين المتقاتلين، فهو ((ديوان العرب)) ولأن قلب العربي لازال يهتز للشعر، فقد ((روي عن النبي أنّه قال: ((لاتدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين))(١٥٠).

كان نصيب الشعر في مد الإمام بالصور البيانية محدود؛ لانها لم تعد ذكريات فاعلة في الانسان العربي المسلم في اطاره الجديد.

وهناك من يقول ان الإمام له شيء من الشعر، كما كان يحفظ الشعر، ويحسن استثماره في نصوص خطبه عامة، وخطب الحرب خاصة، وعلى الرغم من قلة رفد الشعر لصور الإمام الا ان هذه القلة القليلة التي جاء بها هي لغرض معالجة تربوية أو اخلاقية او تثقيفية تتناسب والوضع الذي كان يحيط به.

ولابد من الاشارة إلى ان سرعة خطبة الحرب والغاية منها كانت وراء ابتعاد الإمام عن الاستشهاد بالشعر في تلك الخطب إلا في الحدود التي يأتي فيها الشعر متلائماً مع مراد الإمام من هدفه في الخطبة، فهو يسعى إلى شحذ همم اصحابه وتبصيرهم بأهمية الجهاد وفضله من خلال الشريعة الاسلامية، وهذا اقوى في تأثيره على النفوس.

لقد ورد الشعر في خطب الحرب للإمام في اربع منها فقط، فقد كان يأتي بالبيت أو البيتين من القصيدة كي يستشهد بالحكمة والقول السديد.

قال من خطبة له، في بعض اصحابه بصيغة العتاب والتقريع، نتيجة تثاقلهم عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي، قال:

"مَا هِيَ إلا الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إنْ لَمْ تَكُونِي إلا أنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ. فَقَبَّحَكِ اللهُ"(١٥١) وَتمَثَّلَ بقول الشاعر :

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو إنَّنِي عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الإنَاءِ قَلِيلِ (١٥٢)

يرى الإمام في هذا البيت خير مثال ودليل عن قدرته في ((قبض وبسط)) السلطة في الكوفة فما الخلافة عليهم سوى أمر هين وبسيط، وكأن الكوفة كبقايا الدسم القليل في الاناء بعد ما فرغ منه، ومن ثم قدرة الإمام في السيطرة عليها، جداً يسير لولا مخالفتهم له في الرأي، فحاول ان يقلل من شأن الكوفة وأهلها. عن طريق استشهاده بهذا البيت.

يمتاز أسلوب الإمام في الاستشهاد بالشعر عامة، بصفائه ومتانته وقوة تأثيره، ووصوله إلى قرارة النفوس وامتلاكه الشعور والوجدان، ومن ثم في الاقناع والتأثير.

ومن الخطبة نفسها يعود الإمام متمثلاً بقول الشاعر موضحاً الفرق بين أهل الشام واصحابه، في اجتماع كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم، اذ قال :

"أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاس بِنْ غَنْمٍ"(١٥٣)

وتمثل بقول الشاعر :

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ (١٥٤)

اراد الشاعر ان في هذه القبيلة(١٥٥)، أي بنو فراس بن غنم من الرجال الشجعان من يأتيك كـ((الارمية)) وهي

---

(١٤٩) تاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري: ٣٢٦.
(١٥٠) العمدة: ١/ ٣٠.
(١٥١) نهج البلاغة: ١/ ٦٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٣٣٢.
(١٥٢) لم اعثر له على نسبه لقائل معين ووهم محقق شرح نهج البلاغة (ابن ابي الحديد) فنسبه للمتنبي، والمتنبي في القرن الرابع، ظ: شرح نهج البلاغة: الفهارس: ١٣٩.
(١٥٣) نهج البلاغة: ١/ ٦٥، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٣٣٣.
(١٥٤) البيت في لسان العرب: مادة "رمى" ونسبه إلى ابي جندب الهذل.
(١٥٥) بنو فراس بن غنم، حي مشهور بالشجاعة، منهم علقمة بن فراس، وهو جذل الطعان ومنهم – ربيعة بن مكدم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس، الشجاع المشهور، حامي الظعن حياً وميتاً، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٣٤٢.

السحابة العظيمة وقد خصّ الشاعر ((الحميم)) وهو سحاب الصيف، لأنه ((عظيم القطر، شديد الوقع))(١٥٦)، ووصفهم بسرعة تلبيتهم لدعوة من يستغيثهم من قوله هنالك لو دعوت اتاك منهم.

فالامام يدعو اصحابه ويتباطئون في الاستجابة، بينما تلك القبيلة، ما ان تدعوهم حتى يأتوك كقوة مطر الصيف الذي يأتي بسرعة واذا كانت تلك القبيلة تستجيب هكذا وهي على جاهليتها فالأولى بأصحابه ان يكونوا اكثر استجابة منهم وهم يطمعون في أجر الجهاد وفضيلة الاستشهاد في المعركة، فهو يحاول تحفيزهم لقتال خصومهم من خلال الموازنة بينهم وبين فرسان تلك القبيلة، وما البيت الا تعبيرٌ عن أمنيته في أن يكون له الف فارس من تلك القبيلة الشجاعة ورغبته هذه جاءت نتيجة تقاعس بعض اصحابه عن الجهاد.

ينتقي الإمام الابيات الشعرية ويضمنها في خطبه، فيأتي مما هو شائع معروف، فيوظف الشعر لخدمة غرضه لأجل التأثير والتوضيح فيأتي كلامه نابضاً بالحياة.

وهكذا نرصد التفاعل بين الموروث والجديد، ومن خطبة حربية اخرى للإمام عند خروجه لقتال أهل البصرة، قال:

"وَاللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْش، إلا أنَّ اللهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا، فَكَانُوا كَمَا قَالَ الأَوَلُ"(١٥٧)

وتمثل بقول الشاعر :

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ صَابِحاً   وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلاءَ وَلَمْ تَكُنْ   عَلِيّاً وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا(١٥٨)

ان الإمام يشير إلى ان قريشاً لم يكونوا من أهل العلاء ولكنهم احتلوا هذه المكانة بفضل آل البيت عليهم السلام، لأن الله تعالى اختارهم ليكونوا اسياد الناس ان كانت قريش معهم، وقد تلمست قريش هذا الشرف الذي اختص به بنو هاشم فنقموا عليهم بسبب ذلك.

وكان الإمام متيقناً ان مفاهيم الشعر وقيمه لن تتغير بين عشية وضحاها، وان خفت صوت الشعر امام الاسلام.

فقد كان يستهدف الكشف عن شكل من الوقائع والقيم والحوادث في الماضي ومن ثم ربطها ومزجها بالحاضر، عن طريق، تضمين بعض من خطبه لبعض من الابيات الشعرية، فقد بدأ يجنح إلى التعليل ويأتي بالبراهين العقلية دونما اثارة مباشرة للعواطف، لان ((الفكرة اصل في النثر، والعاطفة مساعد، وعكس ذلك في الشعر حيث تتصدر العاطفة متكئة على حقيقة تسندها وتبعث فيها الصدق والقوة والبقاء))(١٥٩).

ومن خطبة اخرى للإمام بعد التحكيم، قال:

"فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ"(١٦٠).

وتمثل بقول الشاعر:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرجِ اللِّوَى   فَلَمْ تَستبِينُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الْغَدِ(١٦١)

لقد كان الإمام يرفض الاستجابة لمطالب اهل الشام بالتحكيم، ولكن اصحابه اجبروه على الموافقة، وقد بين لهم ما سيؤول إليه التحكيم، بل لا تحكيم مع هؤلاء، ولكن ذلك لم ينفع، فوافقهم غير مختار على التحكيم، وحينما آلت الأمور إلى ما آلت إليه جاء استشهاده بهذاالبيت تجسيداً لما كان، فقد امرهم من قبل ولكنهم لم يقبلوا النصح في البداية، وفي النتيجة تبين لهم نصيحة الإمام بعد فوات الأوان.

وهكذا كانت نتيجة التحكيم مماثلة لنتيجة اخي دريد بن الصمة ((وهو عبد الله (عارض)، أخو دريد بن الصمة،

---

(١٥٦) لسان العرب مادة "رنى".
(١٥٧) نهج البلاغة: ١/ ٨٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ١٨٥.
(١٥٨) البيت نسبه في شرح ابن ابي الحديد/ تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم إلى كعب بن زهير ولم اجده في ديوان كعب.
(١٥٩) الاسلوب: ٦٣.
(١٦٠) نهج البلاغة: ٨٦/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ١٩١.
(١٦١) الاستشهاد بهذا البيت اخذه الإمام من قصيدة لدريد بن الصمة يرثي بها اخاه قال في مطلعها:

نصحت لعارض واصحاب عارض   ورهط بني السوداء القوم شهدي

ظ: شرح ديوان الحماسة: المرزوقي: ٢/ ٨١٢.

لم يستمع لنصح اخيه، فكان ان لقي حتفه))[١٦٢]- فكلاهما لم يأخذ بالنصح.
كان الإمام ذا ثقافة واسعة، مما اتيح له ان يصوغ هذه المزاوجة الفنية الخالدة، والتي بقيت إلى عصرنا هذا، دون ان تفقد روعتها، بل تزداد كلما اتسعت افاق الانسان الثقافية وأصبح اوسع فهماً وأنفذ بصيرة، فالامام ((يهضم ما يقرأ ويكتسب خبر ما يقرأ لثروته اللغوية وحسه الفني ويتمثله في اطاره الشعري))[١٦٣]، ومن ثم يسخّر الشعر في سبيل المصلحة الاسلامية والأهداف الحربية.
نخلص من كل ما سبق ذكره ان الشعر العربي لم يكن له تأثير سوى القليل منه فقط، أي ما يمكن ان يرفد الإمام بالامثلة ذات تأثير تربوي اخلاقي يتناسب وعقيدة الإمام. وان كانت الفاظ خطب الحرب للإمام عذبة وسهلة، وبعيدة عن الحوشي والغريب، وسلامتها من الخطأ والعيب، هو بفضل القرآن، والحديث، فقد انتهل منهما منذ نعومة أظفاره.

---

(١٦٢) شرح ديوان الحماسة: المرزوقي: ٢/ ٨١٤.
(١٦٣) الابداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري: ٧٩.

المبحث الرابع

الأمثال

أولا: أ – التضمين
ب – التلميح
ثانياً: الأمثال المبتكرة

تأثير الأمثال العربية :

تعد الأمثال من أغزر انواع النثر الجاهلي وفرة وصدقاً، وقد اكثر العرب من صنعها وضربها في جميع أحداثهم وشؤون حياتهم، فقد وردت في كلامهم نظماً ونثراً، فضلاً عن ورودها في آي الذكر الحكيم، فقد ((كانت الأمثال كالرموز والاشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحاً صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً))[١٦٤].

يأتي القصد من ضرب الأمثال ((أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لان الغرض في المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل، وذلك هو النهاية في الايضاح))[١٦٥]، وهو صورة ناطقة عن حياة البدوي، من اخلاق وعادات وطريقة العيش فضلاً عن الحروب والغزوات.

وتبقى الأمثال: ((صورة حية ماثلة لمشهد واقعي او متخيل، مرسومةبكلمات معبرة موجزة، يؤتى بها غالباً لتقريب ما يضرب له من طريق الاستعارة او الكناية او التشبيه))[١٦٦] .

جاء الإمام علي بالامثال، بوصفها بيّنة، تأكيداً لصحة ما يقول في خطبه الحربية، وهي تنم عن رجاحة عقل ووعي وثقافة، كما عُد معرفة ايام العرب وأمثالهم آلة من الآت علم البيان وأدواته[١٦٧].

لقد عني الإمام بالحجة والبرهان، فهو يرمي إلى القناعة المنطقية، لتكون المبادئ أكثر عمقا في نفوس اصحابه وسامعيه، وعليه فقد استقى الإمام من الأمثال بطريقتين أثنتين فضلاً عن ما جاء به من ثقافته الخاصة وهن على التوالي:

أولاً: أ- التضمين ب- التلميح

ثانياً- الأمثال المبتكرة.

اولاً:

أ- التضمين

جاء الإمام بروائع البيان العربي الجاهلي، المتحد بالفطرة السليمة اتحاداً مباشراً، ومن ثم جاء بها في خطب الحرب، فقد عدت الأمثال ((مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية))[١٦٨].

من الأمثال التي وردت ضمن خطب الحرب للإمام قول العرب :

((ذهبوا أيدي سبا، تفرقوا ايدي سبا)) [١٦٩]

جاء بها من خطبته في عتاب وتقريع بعض اصحابه، قال:

"أَتْلُو عَلَيْكُمُ الحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ الْقَوْلِ حَتّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِي سَبَأ"[١٧٠].

((متفرقين ايادي سبأ)) جاء بهذا المثل، لغرض المماثلة والمشابهة بين حال ما كان عليه أولاد سبأ من تفرق، وحال بعض من اصحاب الامام، حين يعظهم ويحثهم على الجهاد، فقد جاء النص حاملاً معه احد انواع التشبيه -التمثيلي- فالامثال تتوفر فيها ضروب من القيم التصويرية من تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل.

والامام حينما يشير إلى المثل فكأنه يستحضر قصته في اذهان اصحابه، ومن ثم يوازنوا بين هذا وذاك،

---

(١٦٤) المثل السائر: ١/ ٥٥.

(١٦٥) مفاتيح الغيب: ١/ ٢٩٣.

(١٦٦) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٦٠.

(١٦٧) ظ: المثل السائر: ١/ ٥٣.

(١٦٨) الأدب العربي في الجاهلية والاسلام: ١٧١.

(١٦٩) "سبأ هو ابو عرب اليمن كان له أولاد كثر، ثم تفرق اولئك الاولاد اشد التفرق". مجمع الأمثال: الميداني: ١/ ٢٧٥.

(١٧٠) نهج البلاغة: ١/ ١٨٨، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ٧٤.

لأنهم يعرفون تفاصيل قصص الأمثال.

ومن المعنى نفسه - عتاب وتقريع- في بعض اصحابه جاء بقول العرب:

((لاتَنْقِشْ الْشَّوْكَةَ بِمِثْلِهَا فَإِنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا)) [171].

جاء بهذا المثل ضمن كلام له بعد ليلة الهرير، اذ قال:

"أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةَ بِالشَّوْكَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنّ ضَلْعَهَا مَعَهَا" [172]

تشبيه تمثيلي جاء به فهو يستعين ببعضهم على بعض وقد ورد مفهوم المثل بما سبق قوله عندما قال: "أريد أن اداوي بكم وانتم دائي".

قول آخر للعرب من المعنى نفسه جاء به الإمام ضمن خطب الحرب، اذ قالوا:

((وَلَوْ كَانَ يُطَاعُ لقصيرٍ أَمْرُهُ))[173].

وورد هذا المثل عند الإمام من خطبة له بعد التحكيم، اذ قال:

"وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ، فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ" [174]

"لو كان يطاع لقصير أمر"مثل يضرب لكل ناصح يعصى، وهذا ما أراده الإمام فقد كان ناصحاً لاصحابه قبل التحكيم لكن دون جدوى، ونتيجة معصية نصيحته، فقد أصبح على ما هم عليه بعد التحكيم، من الحسرة والندامة.

مرة أخرى يأتي أمير المؤمنين بمثل في عتاب وتقريع بعض اصحابه ايضاً، اذ قالت العرب:

((رَجَعَ بِأَفْوَقِ نَاصِلٍ))[175] او ((نَجَا مِنْهُ بِأَفْوَقٍّ نَاصِلٍ))[176]

ورد هذا المثل في خطبتين للإمام وكلاهما في ذم المتخاذلين من اصحابه، اذ قال:

"وَلايُدْرَكُ الْحقُّ إلا بِالْجِدِّ، أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ، الْمَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللهِ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ" [177]

وقوله في الخطبة الثانية:

"الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ، وَمَنْ رُمَى بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ" [178]

و"الافوق الناصل" هو السهم المكسور، والسهم اذا كان مكسور الفوق، عارياً من النصل لم يؤثر في الرمية[179]، وهذا ما أراده الإمام فقد شبههم، نتيجة ضعفهم وعجزهم عن النكاية بعدوهم، وهو مثل يضرب لمن استنجد بمن لاينجد، او لمن رجع عن مقصده بالخيبة.

ومن الأمثال التي جاء بها الإمام كي يحث فيها اصحابه على القتال، قول العرب الشائع:

((قَلَّبَ الأَمْرَ ظَهراً لِبَطْنٍ))[180] و ((ضَرَبَ وَجْهَ الأَمْرَ وَعَيْنَهُ))[181].

وكلاهما، يضرب في حسن التدبير، جاء الإمام بهما في خطبته الأولى، أذ اشار عليه اصحابه بالاستعداد للحرب بعد ارساله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية، اذ قال:

"وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هذَا الأَمرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِي إلا الْقِتَالَ أَوِ

([171]) مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٢٣٠.

([172]) نهج البلاغة: ١/ ٢٣٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ٢٩٤.

([173]) "قصير" صاحب جذيمة بن الأبرش كان قد نصح الاخير في امر الزباء فلم يقبل منه نصحه فهلك على يديها. مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٢٣٨.

([174]) نهج البلاغة: ١/ ٨٥.

([175]) مجمع الأمثال: الميداني: ١/ ٢٩٥.

([176]) م.ن: ٢/ ٣٤١.

([177]) نهج البلاغة: ١/ ٧٤.

([178]) م.ن: ١/ ١١٧.

([179]) ظ: نهج البلاغة: ١/ ٧٤.

([180]) مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٩٢.

([181]) م.ن: ١/ ٤٢٠.

الْكُفْرَ"[182]

ومن خطبته الثانية وفيها يصف اصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال اهل الشام، وفيها يحثهم على القتال ايضاً، قال:

"وَقَدْ قَلَّبْتُ هذَا الأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إلا قِتَالُهُمْ أو الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ نِي بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ"[183]

((ضربت انف هذا الأمر وعينه... وقلبت ظهره وبطنه))[184]، أراد الإمام في النصين، أنّه تدبر هذا ألأمر تدبراً ملياً، فكانت الاستعارة - المكنية - اقدر على تجسيد ما يريده الإمام.

لقد فكر الإمام في الأمر ملياً من جميع وجوهه حتى وصل إلى يقين تام، أنه لابد من الحرب على الرغم من كراهتها، لأن عدم الحرب يعني الجحود بالاسلام، والقتال أيسر من مخالفة الدين، فهو يريد اقناع اصحابه من خلال استعماله لهذا المثل بصحة ما ذهب إليه في شأن القتال.

وفي معنى النقد والتعريض جاء الإمام ببعض الأمثال ليوردها ضمن خطبه -خطب الحرب- اذ قالت العرب:

((عَّادَ الأَمْرُ إلى نِصَابَهُ))[185].

ورد هذا المثل ضمن احدى خطب الحرب وكانت في ذم الناكثين اذ قال :

"ألا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَرَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ"[186]

((يرجع الباطل إلى نصابه))، والنصاب هو الأصل، وهذا ما كان يعنيه الإمام وكأن الباطل قد عاد إلى مركزه ومقرّه، وهو مع اعداء الامام، وجاء كلامه على سبيل الاستعارة المكنية، فقد بدا المعقول محسوساً.

مرة أخرى يأتي الإمام بأحد اقوال العرب الشائعة من كلام له في صفة خصومه من اصحاب الجمل:

((يَرْعَدُ وَيَبْرَقُ)) [187]

وهو مثل تقوله العرب اذا تهدد الرجل وتوعد خصمه وهذا ما ورد في خطبة الإمام السابقة الذكر، فقال:

"وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هذَيْنِ الأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ"[188]

((ارعدوا وابرقوا)) هذه صفة اصحاب الجمل الذين ارعدوا وابرقوا بلا مطر، أي ان فعلهم هذا لاشيء وراءه، وعلى هذا جاءت الاستعارة -التصريحية- موظفها الإمام حتى يوضح حالة العجز التي كان عليها اصحاب الجمل على الرغم من الوعيد والتهديد.

([182]) نهج البلاغة: ١/ ٩٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ٣٢٣.
([183]) نهج البلاغة: ١/ ١٠٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٤/ ٦.
([184]) المثلان يضربان في ((الاستقصاء والبحث والتأمل والفكر))، ظ: مجمع الأمثال: الميداني: ١/ ٤٢٠، ٩٢/٢.
([185]) "المثل يضرب في الأمر الذي يتولاه اربابه"، مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٣٥.
([186]) نهج البلاغة: ١/ ٥٩.
([187]) مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٤١٦.
([188]) نهج البلاغة: ١/ ٤٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٢٣٧.

ب - التلميح(*) :

لم يأت الإمام بالامثال في خطبه الا لاسباب اوجبتها، وربطها بالواقع والاحداث التي يمر بها الإمام واصحابه، ولأن في حال يتوجب عليه ان يأتي بكلام يمتاز بالايجاز والاختصار، وهذا ما عُرف عن الامثال، فقد بدت كالعلامة التي يعرف بها الشيء [١٨٩]. فضلاً عن انها غنية بالمنطق والحجة والبرهان والاقيسة.

لمحّ الإمام لبعض الأمثال دون أن يقصد إلى ذكره كمثل منها قول العرب:

((لايُكَذِبُ الرَائِدُ أَهْلَهُ))[١٩٠]

((الرائد)) هو الذي يتقدم القوم لينظر لهم الماء والكلأ. جاء الإمام ملمحاً إلى هذا المثل بقوله في احدى خطبه:

"فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ وأحْضِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إنْ هَتَفَ بِكُمْ، وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ"[١٩١]

وهو مثل "يضرب فيما يخاف من غيّ الكذب"[١٩٢] والرائد هو من يأمر الهداة والدعاة الذين يتلقون عنه ويوصيهم بالصدق في النصيحة[١٩٣].

ثانياً :

الأمثال المبتكرة :

لقد تهيأت للإمام جميع الوسائل التي تعدّه لهذا المكان بين أهل البلاغة، فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو، فضلاً عن صفو مشاربه من آي الذكر الحكيم، والنبي ، اضف إلى ذلك استعداداته الهائلة ومواهبه العظيمة، فأجتمعت اسباب العبقرية لديه من الفطرة ومن البيئة جميعاً.

خيال الإمام خيال العبقري الذي يقوم على اساس من الواقع، فيحيط بهذا الواقع ويبرزه ويجليه. وقد اجتمعت في امثاله هذه ما لاتجتمع في غيره من الكلام. كما قال النظام، من ((ايجاز اللفظ، واصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة)) [١٩٤].

من هذه الامثلة التي وردت في خطب الحرب، قوله من خطبته في ذم الناكثين، وجاء كلامه بصيغة العتاب والتقريع، اذ قال:

"مَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللهِ بِالسَّهْمِ الأخْيَبِ"[١٩٥]

((السهم الأخيب)) وهو من الاسهم التي لاحظ لها، وقد عدّ كلام الإمام هذا، مثلاً يضرب في ((خيبة الرجل من مطلوبه))[١٩٦] وهذا ما كان عليه حال صحب الإمام فلا صدق في اقوالهم ولارجاء في انتصارهم، ومن ثم فلايمكن للإمام ان يوعد العدو بهم.

مثل أخر ورد في كلام الإمام يحث فيه اصحابه على الجهاد قال:

(*) ((وهو من التضمين وانما بعضهم افرده وهو ان يثير في فحوى كلامه إلى مثل سائد او بيت مشهور او قضية معروفة من غير ان يذكره)) ظ: حسن التوسل: ٢٤٢.

[١٨٩] ظ: المثل السائر: ١/ ٥٤.

[١٩٠] مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٢٣٣.

[١٩١] نهج البلاغة: ١/ ٢٠٨، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١٩٠.

[١٩٢] مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٢٣٣.

[١٩٣] ظ: نهج البلاغة: ١/ ٢٠٩.

[١٩٤] مجمع الأمثال: الميداني: ١/ ٦.

[١٩٥] نهج البلاغة: ١/ ٧٤.

[١٩٦] مجمع الأمثال: ٢/ ٣٠٨.

"لا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ"[197]

جاء كلام الإمام□ كناية عن امرين الأول ((العزيمة)) كناية عن طلب الأمور العظيمة، و((الوليمة)) كناية عن الاسترخاء والرضا باللذائذ وهما كناية عن صفة، فقد كان هذا المثل يضرب في عدم اجتماع امرين مختلفين في الاتجاه وهما ((طلب المعالي مع الركون إلى اللذائذ))[198]. والامام يحث اصحابه على القتال فالكرامة لا تجتمع مع حب الحياة، فلا حياة لقوم لايستقبلون الموت في سبيل حريتهم بثغر باسم.

مثل أخر من خطبته في اصحابه واصحاب رسول الله□، اذ قال:

"وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَى مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ"[199]

((بموضع الشجى من مساغ ريقه)) كناية عن قرب الله تعالى من الظالم وتمكنه منه حيث شاء، فـ((الشجى)) ما يعترض الحلق من عظم و ((مساغ ريقه)) ما يسهل مدخله في الحلق، والكلام تمثيل لقرب الله تعالى من الظالمين.

مثل اخر ورد على لسان المولدين سبقهم إلى ذلك الإمام □ اذ قال من خطبة عند خروجه لقتال اهل البصرة، قال:

"وَأَيْمُ اللهِ لأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ"[200]

قد عدّ هذا الكلام، مثلاً، أخذ يضرب لمن يفرق بين الحق والباطل، والامام □ قد جاء بألطف استعارة تمثيلية، فكانه ((جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالباً عليه ومحيطاً به، فاذا بقر ظهر الحق الكامن فيه))[201].

قول آخر للإمام لم يسبق إليه أحد، اذ قال من خطبة له □ حين ورد غزو الانبار بجيش معاوية فلم ينهضوا، وفيها يذكر فضل الجهاد، ويستنهض الناس، ويذكر علمه بالحرب ويلقي عليهم التبعة لعدم طاعته، اذ قال:

"لِلهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي، لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ، وَلكِنْ، لا رَأْيَ لِمَنْ لايُطَاعُ"[202]

((لا رأي لمن لايطاع))[203] قاله أمير المؤمنين معاتباً اصحابه وعدّ مثلاً يضرب لمن لايطاع ومن ثم لا رأي له.

مجمل القول، ان الإمام□ كان ذا ثقافة واسعة، ومديدة، واخذ يولد الافكار من الافكار، وكأن البلاغة لديه ينبوع يجري لا انقطاع له، ومن ثم جاءت الأمثال في خطب الحرب بكل انواعها من تضمين وتلميح، وحتى المبتكرة، كانت مضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم.

---

[197] نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ٧١.
[198] م.ن: ٢/ ٢٣٤.
[199] نهج البلاغة : ١: ١٨٧، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧/ ٧١.
[200] م.ن: ١/ ٢٠٠، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٧/ ١١٦.
[201] شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١١٦.
[202] نهج البلاغة: ١/ ٧٠.
[203] مجمع الأمثال: ٢/ ٢٤١.

الفصل الثانـي

المبحث الأول

التشبيه

التشبيه:

من الفنون التي كثر استعمالها عند العرب، فقد جرى في كلامهم، وتناولته أشعارهم، وبنيت عليه خطبهم، كما يُعدّ "من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها"[204] فضلاً عن تأثيره النفسي والعقلي وقد عني بدراسة أثره في صناعة الأدب كثير من العلماء والمتكلمين وعلماء البلاغة[205]. كما عُدّ مقياساً لشاعرية الشاعر عند كثير من النقاد العرب[206].

فالتشبيه: عملية مقارنة ومماثلة بين طرفين مشبه ومشبه به لصفة تجمع بينهما، والتعريفات كلها لاتخرج عن هذا المضمون، وهو ما اتفق عليه كثير من العلماء [207].

وقد أصبح التشبيه فلسفة فنية لها قواعدها وأصولها عند عبد القاهر الجرجاني، لما انطوى عليه من قدرة على الخلق والتصوير "فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالاخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الافراد، لا سبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما"[208].

وعلى هذا فالتشبيه "محاولة بلاغية جادة لصقل الشكل وتطوير اللفظ، ومهمته تقريب المعنى إلى الذهن بتجسيده حياً، ومن ثم فهو ينقل اللفظ من صورة إلى صورة أخرى على النحو الذي يريده المصور"[209].

وقد كان هدف الامام الاسمى هو التأثير النفسي الذي قد يحدثه في تشبيهاته بانواعها المختلفة، من ايحاء ودلالة داخل نفوس اصحابه ممن هم مؤتلفون معه ومختلفون عنه، فجاءت تشبيهاته "شديدة الائتلاف فيما بين اطرافها على الرغم من تباعد اجناسها بسبب ما اضيف وركب والف حتى توافقت فيما بينها، فاذا بها خلقت من ذلك الصهر والتركيب معاني ثرّة لم يقع بالحسبان التلفت اليها لاعتياد الناس عليها وشدة الفتهم لها"[210].

ويقوم التشبيه على أساس أطرافه الأربعة المشبه والمشبه به ووجه الشبه وأداة التشبيه، وقد يحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فيسمى التشبيه في مثل هذه الحال "تشبيهاً بليغاً" ويعد هذا من أرقى أنواع التشبيه لدلالته على نفسه بنفسه ولانه يحدث تلاحماً بين المشبه به وكأنهما شيئٌ واحد.

وقد جاء التشبيه البليغ، في مقدمة أنواع التشبيه التي وردت في خطب الحرب للأمام اذ ندرك أن هناك حالة اندماج بين المشبه والمشبه به بعد حذف اداة التشبيه ووجه الشبه. وقد عدّه القزويني :"الشيء اذا نيل بعد الطلب له والاشتياق اليه، كان نيله أحلى، وموقعه في النفس الطف"[211]. يقول الامام في احدى خطبه حين وردهُ خبر غزو الانبار، فلم ينهض اصحابه، وفيها يذكر فضل الجهاد، قال:

"فإنَّ الجهادَ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنَّةِ فتحَهُ اللهُ لِخاصَّةِ أوْليائِهِ وهوَ لِباسُ التَّقْوَى..."[٢١٢]

يسخّر الامام التشبيه البليغ لايضاح الصورة مستفيداً من شرط بلاغة التشبيه وهو "أن يشبه الشيء بما هو

---

(٢٠٤) الاتقان في علوم القرآن:٣/ ١٤١.

(٢٠٥) ظ: الكامل :٩٣/٣، البديع :١٢١، عيار الشعر:١٧،٢٣،٨٩، نقد الشعر: ١٢٢، العمدة ١:/٢٨٦، اسرار البلاغة :٩٠، مفتاح العلوم :٣٣٢، المثل السائر: ٢/ ١١٢، الايضاح: ٢/ ٢١٣.

(٢٠٦) ظ: طبقات فحول الشعراء ، حيث قال ابن سلام عن أمرئ القيس :"كان أحسن طبقته تشبيهاً" ٥٥/١.

(٢٠٧) ظ: الحيوان:٣٧٣/٤، النكت في اعجاز القرآن :٧٤ ، كتاب الصناعتين :٢٤٥

(٢٠٨) اسرار البلاغة :٩٠.

(٢٠٩) اصول البيان العربي:٦٣.

(٢١٠) التصوير الفني في خطب الامام :رسالة ماجستير :٤٧ .

(٢١١) الايضاح :٢٥٩/٢.

(٢١٢) نهج البلاغة:٦٧/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٧٧/٢.

أكبر منه وأعظم"[213] فجاء فضل الجهاد مشابها لتقوى الله في الجزاء والثواب، ولما كانت التقوى أسمى مراتب العبودية فيكون الجهاد أسمى أعمال الانسان التي يصل بها إلى هذه المرتبة، فالجهاد يصل بالمجاهد إلى الجنة من باب خاص فتحه الله تعالى للمجاهدين دون غيرهم، تمييزاً لهم من عباده الصالحين الاخرين، فتكاد تكون الصورة في قوله المذكور موازية للفكرة في وضوحها، وإن كانت تفوقها بثاً وإيحاء.

ومرة أخرى نجد الامام □ يوظف التشبيه البليغ للأيحاء بصورة جديدة في ذم المتقاعسين عن القتال، عند علمه بغزوة النعمان بن بشير لعين التمر، قال:

"دعوتُكمْ إلى نَصْرِ إخَوانِكُمْ فجرْجرْتُمْ جَرْجَرَةَ الجَمَلِ الأسَرِّ وتثاقلتُمْ تَثاقُلَ النِّضْوِ الأدبَرِ"[214]

شبه الامام □ بعض اصحابه في تردد صوتهم وحيرتهم لمّا دعاهم بجرجرة الجمل المصاب بالاعياء والتعب وتثاقلوا عن النهوض إلى جهاد خصومهم تثاقل النضو الأدبر وتثاقل الهزيل منها والتي اصيبت في دبرها فلا تستطيع النهوض، والمعنى الجامع في ذلك كله هو العجز والضعف والخذلان، نرى الامام □ "يتجاوز التشبيه الواحد في العبارة الواحدة إلى تشبيهات متعددة تصور بها براعة التشبيه، ودقة المعنى"[215].

وغالباً ما نلمح الامام □ يصوغ التشبيه مصدرياً، وهو ما عدّه العلماء من محاسن التشبيه[216]، كما يعمد □ إلى تشبيه به حركة[217]، وغرضه من كل ذلك؛ هو بيان مقدار حال المشبه من قوة وضعف وزيادة ونقصان[218]. فعندما تضم إلى بعضها لبعضِ الأخر تبدو محسوسة وذات قوة وصفية متميزة، وهنا تكمن القدرة الابداعية للتشبيه في ادراك الصورة.

وقد كثر استعمال الامام □ للتشبيه البليغ[219]، في صياغة صورة ذات ايحاء وتأثير في نفوس سامعيه.

ويعتمد الامام □ التشبيه التمثيلي[220]، في خطبه اذ تمكن من نسبة الشبه المركب من حاله مع غيره فأصبح مجموع الكلام مثلاً [221]، وقيل عنه أنه أدق تصوير وأعظم تأثير[222].

يقول □ معاتباً بعض أصحابه بعد ليلة الهرير[*] :

"أيْنَ القَوْمُ الّذِينَ دُعُوا إلى الإسلامِ فَقَبِلُوهُ ، وَ قَرأُوا القرآنَ فأحْكَموهُ، وهيْجُوا إلى القِتالِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللّقاحِ إلى أولادِها"[223].

الصورة هنا غزيرة المعنى شديدة الايحاء بالفاظها، واللقاح: هي الناقة الحلوب[224]. تبدو وكأن هناك مشاركة بين حال المسلمين وحبهم الشديد للقتال- من أجل الدين والعقيدة- كحال الناقة الحلوب وحبها لأولادها. وهي تسقيهم وترويهم من درّها ولبنها،فالمشاركة هنا بين الطرفين كانت في المعنى[225] فالامام يتحسّر على اولئك الذين حملوا الدين ودافعوا عنه، وكأنه مأخذ على اصحابه انهم لم يصلوافي ايمانهم ومن ثم في جهاد عدوهم إلى ما وصل إليه

---

(٢١٣) المثل السائر : ١٢٤/٢.
(٢١٤) نهج البلاغة:٩٠/١ ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد :٣٠١/٢.
(٢١٥) اصول البيان العربي: ٦٥.
(٢١٦) ظ: المثل السائر :١٢٣/٢.
(٢١٧) ظ: كتاب الصناعتين:٢٥١.
(٢١٨) ظ: الايضاح:٢٣٧/٢
(٢١٩) ظ: نهج البلاغة:٢٣٢/١،١٠٧،١٠٥،١٠٠،٨٣،٨٢،٦٩: ٢٩/٢، ٢١، ٢.
(٢٢٠) "انتزاع وجه الشبه من أمور متعددة". اصول البيان العربي:٧٤.
(٢٢١) ظ: اسرار البلاغة:٢٣٩.
(٢٢٢) ظ:م.ن:٨٣.
(*) وهي أحدى ليالي معركة صفين، وكان القتال فيها شديداً جداً ، ظ: وقعة صفين:٤٨٠/٧،٤٧٩.
(٢٢٣) نهج البلاغة :٢٣٤/١، ظ:شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٢٩٥/٧،٢٩٤.
(٢٢٤) ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٢٩٥/٧.
(٢٢٥) ظ: الايضاح: ٢١٣/٢.

أولئك المسلمون الأوائل. ولو كانوا كذلك لما طالت عليهم الحرب، ولأنتهى الأمر إلى النصر الأكيد في زمن ليس بالطويل. ومن ثم فالتشبيه جاء لـ"يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً"[226] .

ويرى بعض الباحثين أن تشبيه التمثيل "أبلغ من غيره، لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر، وتدقيق نظر، وهو أعظم أثراً في المعاني، فيرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها، فان كان مدحاً كان أوقع، أو ذماً كان أوجع أو برهاناً كان أسطع ومن ثم يحتاج إلى كد الذهن في فهمه لاستخراج الصورة المنتزعة من أمور متعددة، حسية كانت أو غير حسية لتكونّ وجه الشبه" [227]، فكلما أزدادت الصورة في تفصيلاتها زادت الحاجة إلى التوقف والتذكر، وهذا ما وجدنا عليه كل تشبيهات الإمام ومن هنا نطل على قول آخر للأمام يصف بعض أصحابه بعد تركهم القتال والنصر يكاد يتحقق فيقول:

"فإنَّمَا أنْتُمْ كَالمَرْأةِ الحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيِّمُهَا وطَالَ تأيُّمُهَا وَوَرِثَهَا أبْعَدُهَا"[228]

وقد أخرج الامام المعنى المراد بالحس والمشاهدة "وهذه فائدة التمثيل في جميع العلوم لأن المثال لابد من أن يكون أظهر من الممثل، فالغرض بايراده، ايضاح المعنى وبيانه"[229] فالصورة التفصيلية لم يضعها الامام إلا ليتحدث عن مشاعره، فـ "تعقيب المعاني به- التشبيه ولاسيما قسم التمثيل منه- يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها، مدحاً كان أو ذماً أو افتخاراً.."[230].

وهذا ما نلاحظه من تركيز الامام على أعتراضه على التحكيم بهذا القول، فبعد أن تبينت علامات النصر لجيشه، اثروا التحكيم ففرطوا بالنصر الذي لاح لهم، فكانوا بهذا يشبهون بحال المرأة الحامل التي أتمت حملها ثم أملصت، ثم يجمع عليها هموماً أخرى تتمثل بموت قيمها وطول تأيمها ثم وراثة الابعد لها، وكأنه يرسم صورة لما آل إليه مصير التحكيم فيما بعد كان يؤكد على "معان ذاتية عاشها و تفاعل معها أو تصورها ويريد من

---

(٢٢٦) كتاب الصناعتين:٢٤٩.
(٢٢٧) جواهر البلاغة: ٢٦٥.
(٢٢٨) نهج البلاغة: ١١٨/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١٢٧/٦.
(٢٢٩) سر الفصاحة: ٩٧.
(٢٣٠) الايضاح: ٢١٤/٢.

ثمَّ نقلها إلى الاخرين وعرضها من خلال الالفاظ التي هي في الحقيقة معارض للمعاني وآوان لها"[231] .

وفي قول آخر له في بعض أصحابه معاتباً:

" يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبٍ آخَر "[232]

تشير الصورة إلى الأبل التي غاب عنها رعاتها فلا يمكن جمعها فاذا ما جمعت من جانب ذهبت إلى جانب آخر، ويعد كلامه هنا من أفضل أنواع التشبيه لانه وقع بين طرفين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما،[233] بحيث يدنى بهما إلى حال الاتحاد، بين حال صحب الامام وحال الإبل... وهكذا فالتشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة، وأخرى بالحال والطريقة.

إن أساس الأسلوب التمثيلي عند الامام [234]، قائم على عنصري التشخيص والإبداع ونجد أنه "قائم في الاساس على الايحاء للمتلقي، ان المشبه وهو في الغالب معنى ذهني مجرد، متمثل متجسد في المشبه به الذي هو في الغالب موجود حسي"[235]

مظهر آخر استعمله الامام هو قلب التشبيه، وأكثر ما يؤدي هذا التشبيه هو المبالغة في الصفة " فيكون في الغالب إيهام أن المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه.. وهذا يسمى اظهار المطلوب"[236]

وهذا ما نجده في استنفاره الناس إلى أهل الشام إذ قال:

" لَبِئسَ لَعَمْرُ اللهِ سَعْرُ نَارِ الحَرْبِ أَنْتُمْ"[237]

اذا عدوا وهم وقود نار الحرب وقد اقتضى المقام ان يتأخر المشبه ويتقدم المشبه به، فكان التقدير "بئس أنتم نار الحرب" ويقصد فيها أنهم ليسوا من أبناء الحرب ولا بأكفائها، وقصد هذا النوع من التشبيه لغرض المبالغة[238].

ومن فضائل التشبيه عند الامام أنه كان " يأتيك من الشيء الواحد بأشباه عدة" [239] فنجد الأبل وهي الأكثر استعمالاً عند الامام ولا شك في ذلك لما كانت تحظى به من رعاية العرب واهتمامهم منذ عصر ما قبل الاسلام وبقيت على ما هي عليه في صدر الاسلام. إذ وصف بعض اصحابه بصفين، قال:

" فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا" [240]

استطاع الامام هنا خلق صورة جديدة بين هذه المفردات، إذ شبه حال الناس- وهم يفدون عليه لمبايعته بأمر الخلافة رغبة منهم – بحال الإبل العطاش التي تقصد الورد للأستسقاء، والعرب تضرب الامثال بالابل العطاش

---

(٢٣١) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٨٤.

(٢٣٢) نهج البلاغة:١ / ١٨٩ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد :٧/ ٧٦.

(٢٣٣) ظ: نقد الشعر:١٢٢ ، العمدة :١/ ٢٥٩.

(٢٣٤) ظ: نهج البلاغة :١ / ٦٥،٨٨،١٨٨،١٩٠،٢٣٤.

(٢٣٥) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية :٢٠٢.

(٢٣٦) الايضاح : ٢/ ٢٤٠، ٢٤١.

(٢٣٧) نهج البلاغة :١ / ٨٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد :٢/ ١٩١ .

(٢٣٨) ظ: المثل السائر :١/ ٤٢١ .

(٢٣٩) الايضاح: ٢/ ٢١٧.

(٢٤٠) نهج البلاغة: ١/ ١٠٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٤ / ٦.

وتخصها دون غيرها من الحيوانات لأنها "اذا انست مواردها وشارفت مشاربها صرد شرب بعضها وخلي عن الورد بعضها وغادر الزحام صواديها تحوم ولوابيها تلوب ولات حين ورود"[241] .

الصورة هنا شديدة الايحاء بالفاظها زادها التشبيه (البليغ والتمثيلي)ايحاء وتفصيلاً، فاطلاق راعيها بعد خلعه عنها ما يقيدها من الحبال جاءت مسرعة متلهفة إلى الماء فليس وراءها ما يبطئ سيرها، فالصورة هنا دائبة بالحركة والاستثارة وهدفه تقريب الاشياء وابراز الحقائق، واستخلاص العظات والبينات.

ومرة أخرى يوظف الامام التشبيه البليغ مع التمثيلي في تصوير تخاذل بعض أصحابه فيقول:

" وَقَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ أبْنِ أبِي طَالِبٍ أنِفِرَاجَ الْمَرْأةِ عَنْ قُبُلِهَا" [242]

اذا صورهم في تقاعسهم عن نصرته بقُبل المرأة في حال الولادة، فالمرأة لاتنفرج عن قبلها أبداً إلا في هذه الحالة. فهي مضطرة إلى ذلك لتحقيق ما هو أسمى، وهو الولادة. أما هم فانفرجوا عنه لا ليأتي مولود جديد بل خذلان وتقاعس، وكأنه يريد أن هذا الخذلان هو كشف للعورة دون مسوغ. ندرك ان الباعث النفسي خير ما يعين الامام على الابداع فجاءت تشبيهاته منسجمة مع حالته الشعورية لما في ظاهرها من دلالة على الحزن، فقد دأب على تضمين العبارة أقل ما يمكن من الالفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني.

وقد أتاح بتشبيهاته تلك فرصة أكبر للمتلقي لاكتشاف المزيد من الصفات المشتركة، فعمد إلى حالة الانفراج لما فيها من معانٍ متعددة قصد فيها أجود أنواع التشبيه وأبلغها وهو "أخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة" [243] .

ومن محاسن التشبيه لدى الامام ان جاء مصدرياً، ولهذا قال الامام (انفرجتم- انفراج) فقد خلق صورة مقابلة ذات تركيب حسي امدت المشبه بدلالات جديدة، واسبغت عليه مزيداً من الايحاء والوضوح.

ندرك "أن الصورة في تشبيهات الامام غالباً ما تبنى على مجموعة أجزاء يُرّكب بعضها من بعض في مشهد تمثيلي تتوحد فيها الأجزاء وتتجمع الأشتات، لان أكثر المعاني المراد تصويرها عقلية لا يتأتى للتشبيه المفرد المستغني عن التفصيل عرض صورها بتلك الغاية من الدقة" [244] وعلى هذا يمكن القول في التمثيل عند الامام أنه "كل صورة حسية يبتكرها الذهن او يتخيلها للمعاني الذهنية المجردة، أو هو كل ما يتمثله أو يتخيله الذهن من صورة حسية يراها أهلاً لأنْ تتجسد بها المعاني الذهنية المجردة، وتكون وصفاً حسياً صادقاً لها " [245] اذ يعمد الامام إلى التصوير عند التقرير ويعمد إلى التمثيل عند السرد والعرض.

ولكثرة ما تثيره الابل في فكر العرب من صور، فهم أهل بادية يهتمون بالانعام من خلال ملاحظ عديدة، نجد الامام يستدعي هذا الاهتمام ويمزج به عناصر الاداء البياني، ويقوم ذلك لديه على أساس ايجاد التأليف السوي بين الشيئين "حتى يكون ائتلافهما الذي يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس"[246] . فكان الوصف حسيّاً يتناول مظاهر الاشياء ثابتة ومتحركة وفي الوقت ذاته يتناول النواحي المعنوية كالفضائل النفسية والالام المبرحة .

يقول الامام معنفاً اصحابه بصيغة العتاب والتقريع:

" وَمَا أنْتُمْ برُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ وَلا زَوَافِرِ عِزّ يُفْتَقَرُ إلَيْكُمْ، مَا أنْتُمْ إلا كَإبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا"[247]

شبه بعض اصحابه بالابل الضالة مع رعاتها والصورة هذه رسم معنى ذهني هو التفرق والتشتت؛ بسبب عدم الاتفاق على كلمة أو مبدأ ورأي، وتمضي الصورة في التفصيل فتأتي نتيجة ضلال الرعاة بالإبل وهي "كناية عن اختلاف كلمتهم وشتات أمرهم" [248] فكلما جمعت من جانب انتشرت من جانب أخر وهكذا.

وفي مشهد أخر لصورة الابل يصف بعض اصحابه في بعض ايام صفين، قال:

" وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوحَ صَدْرِي أنْ رَأيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونُهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ

---

(٢٤١) الجمان في تشبيهات القرآن: ٣٢٩.
(٢٤٢) نهج البلاغة:١ / ١٨٩ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧ / ٧٦.
(٢٤٣) كتاب الصناعتين :٢٤٦.
(٢٤٤) التصوير الفني في خطب الامام رسالة ماجستير :٥٨.
(٢٤٥) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربي:٢٠٢.
(٢٤٦) اسرار البلاغة: ١٣٩.
(٢٤٧) نهج البلاغة: ١/ ٨٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد :٢ / ١٩٠ .
(٢٤٨) في ظلال نهج البلاغة: ١/ ٢٢٦.

مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ حَسّاً بِالنِّصَالِ وَشَجْراً بَالرِّمَاحِ ، تَرْكَبُ أُوَلاهُمْ أُخْرَاهُمْ، كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا" (249)

رسم الامام صورة شجاعة أصحابه في صفين وكيف أدخلوا الرعب في صدور أعدائهم، فأصبح حالهم "كالابل العطاش التي اجتمعت على الحياض لتشرب ثم طردت ورميت عنها بالسهام وذيدت عما وردته، فان طردها على الاجتماع يوجب لها ان يركب بعضها بعضا ويقع بعضها على بعض"(250) وكنى عن ذلك بقوله "تركب أولاهم أخراهم" ، فصورته هذه ذات بعدٍ ايحائي لصورة المشبه. هذا حال أهل الشام وليس أصحاب الامام. فالابل حينما تاتي الماء تجتمع على مكان واحد. وحينما تطرد تتفرق إلى الاتجاهات كلها فيركب بعضها بعضاً.

نرى مشهداً آخر للتشبيه البليغ ممزوجاً بالكناية والإمام يعرض لنا حقائق ممزوجة بالالم والحسرة والعتاب، فيلقي التبعة على بعض أصحابه لعدم طاعته فقال عنهم:

"يا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ، حُلُومُ الأَطْفَالِ، وعُقُولَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ"(251)

شبه الإمام أفراداً من جيشه ممن يكتفون من الحياة بالعيش الذليل، يهابون الامر اليسير، كالأطفال في احلامهم التافهة، وكالنساء في العقلية، وهذا يعني تأكيده على أنهم ليسوا برجال فهم كالأطفال في الاولاع، وكالنساء في التفكير، واذا كانوا كذلك فهم أشباه الرجال ولا رجال، وتبدو صفات التشبيه جلية في قول الإمام تعتمد المجاز والتشبيه، والى جانب ما ذكره من تشبيه نجد الكناية(252)،في قوله "ربات الحجال"لاشك ان الإمام خصّ ضرباً معيناً من النساء "ربات الحجال" أي ذوات الزينة اللاتي لايبدين اهتماماً الا لزينتهن، فيكون تفكيرهن محصوراً في هذا الجانب أي أنه لايعني جميع النساء. وإلا لما اختار هذا الوصف دون غيره. ومن ثم فالنص يكشف لنا عن عمق الم الإمام من مواقف أصحابه في عدم طاعته بقوله من الخطبة نفسها:

" أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ... فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمْلَهَ البَلاءِ"(253)

لقد تضافرت ثلاثة من عناصر البيان لابراز صورة فنية ذات قوة وصفية، نجد التشبيه في قوله "ثوب الذل" فقد جعل الذل كالثوب على سبيل اضافة المشبه به إلى المشبه والمعنى شمله الذل، ومن ثم نرى استعارة في قوله "البسه" أي أذله لما يشتمل عليه الذليل من المهانة على سبيل الاستعارة التصريحية التخييلية(254) .لمّا ذكر الإمام أجر الجهاد في بداية خطبته فمن يتركه بعد ذلك فهو قد لبس ثوب الذل، كما نجد إلى جانبي التشبيه والاستعارة، الكناية، فقد كان التركيب كله كناية عن المذلة والهوان، وكأن الإمام كان يعمد إلى "التفنن بأبراز الصورة الفنية للشكل، وأستقراء دلالاتها الحسية، وذلك عن طريق تسخير قدرة التشبيه الخارقة في تلوين الشكل بظلال مبتكرة، وأزياء متنوعة، لم تقع بحس قبل التشبيه، ولم تجر بها العادة، ولا تعرف بداهة، إلا بلحاظ مجموعة العلاقات الفنية في التشبيه، وعند ضم بعضها للبعض الأخر تبدو محسوسة متعارفة ذات قوة وصفية، ومن هنا ندرك القدرة الابداعية للتشبيه في تكييف الصورة" (255)

الامام يعبر في أفكاره عن حالة نفسية صادقة، وأحساس وجداني ينفذ من خلالهما إلى نفوس سامعيه وتصبح الحالة التي يعانونها قابلة للأصلاح وإذا شئت فأنظر إلى الإمام يعرض إلى التزاحم والتراكم عليه عند البيعة، فيقول:

---

(٢٤٩) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٦، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧ / ١٨٠.
(٢٥٠) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣ / ٣٨ .
(٢٥١) نهج البلاغة: ١/ ٧٠ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ٧٧.
(٢٥٢) ظ: م.ن: ١/ ١٠٧، ١٨٨، ٢/ ٨٥.
(٢٥٣) ظ:م.ن: ١/ ٦٧.
(٢٥٤) "هي أن يستعار لفظاً دال على حقيقة خيالية تقدر في الوهم ثم تردف بذكر المستعار له ايضاحاً لها وتعريفاً لحالها". معجم المصطلحات البلاغية: ١ / ١٥١.
(٢٥٥) الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٦٨.

"فأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ العُوذِ المَطَافِيلِ عَلَى أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ"[256]

"تجد التفاصيل مغمورة فيما بينها وتراها لا تحضر إلا بعد اعمال الروية واستعانة بالتذكر، ويتفاوت الحال في الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل"[257] فقد شبه اقبالهم عليه طالبين للبيعة بإقبال مسّنات النوق على أطفالها.. "خص المسنات لأنها أقوى حنّة على أولادها"[258] ليبين شدة اقبالهم لبيعته، وهناك ما يؤكد شدة ذلك الاقبال وهو حذف أداة التشبيه، وذلك للمبالغة في اقتراب طرفي التشبيه من بعضهما.[259]

نلاحظ صوراً مختلفة لحال الابل التي عبر عنها الإمام في هذا الفن – التشبيه – فتارة يجعل من الابل صورة للمتقاعسين بقوله "ما أنتم إلا كأبل ضل رعاتها" وتارة يوظف صورة حسنة لها فيجعل حال المسلمين في حبهم للقتال من أجل الدين والعقيدة كـ"وله اللقاح إلى أولادها" وفي كل الاحوال فـ"التفاعل بين طرفي الصورة التشبيهية وملاءمتها لحال الخطاب من أهم عناصرها الفنية، وأغراضها النفسية" [260] لما لها من قدرة على التأثير والتأثر.

وللتشبيه المجمل [261]، نصيب من خطب الحرب للإمام عليففي قوله لأصحابه بصيغة النقد والتعريض:

"اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، ونَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ؟" [262]

الإمام يتجه إلى استعراض ترغيب قومه بالجهاد واستنفاره لهم، فلم ينفروا نتيجة التخاذل، ولم يسمعوا منه جراء التواكل، وكان دعاؤه لذلك دعاء نوح سراً وجهراً فما كانت هناك استجابة، ونصح لهم فما وجد للنصح سبيلاً، فلم يقبلوا ذلك، واستنكر عليهم هذه الحالة الشاذة، فهم حاضرون بأبدانهم غائبون بأرواحهم، ليسوا بأحرار في دنياهم، يتصنعون الكبرياء والجبروت عبيد كأرباب فهم عبيد لأهوائهم ولكنهم يشبهون الارباب فيما يتظاهرون به.

وفي ذلك كله بيان لحالهم ووصف لدخائلهم المزدوجة وقد كان يريد "أن أخلاقهم كأخلاق العبيد؛ من الغدر والخلاف ودناءة الأنفس؛ وفيهم مع ذلك كبر السادات والارباب وتيههم فقد جمعوا خصال السوء كلها"[263] وفيه لم يذكر وصف المشبه ولا وصف المشبه به، نتيجة التناسب بين الطرفين.

كما نجد التشبيه المفصل[264]، قد وظفه الإمام في حث أصحابه على القتال في ساحة الحرب، قال:

"الرَّائِحُ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ" [265].

ما عرف عن التشبيه المفصل هو ما ذكر فيه وجه الشبه، ولكن قد يتسامح بذكر ما يتبعه مكانه ... ولا مما تبعد دلالتها على معانيها[266]، وهذا ما أدركناه في الصورة أعلاه، فقد شبه القادم إلى الله سبحانه وتعالى فنال نعيمه أثر استشهاده بالظمآن الذي يرد الماء، والمعنى الجامع بين الطرفين؛ هو بلوغ المراد واطمئنان النفس به.

وتتميز تشبيهات الإمام بقوة العاطفة، التي تؤثر في عباراته تاثيراً واضحاً ويبدو ذلك في الكلمات والصور والتراكيب فضلاً عن ورود الحقيقة؛ لانها كانت تسند العاطفة وتبعث فيها القوة، ولما كان يمثل الشيء بالشيء فانما يقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به؛

---

(٢٥٦) نهج البلاغة: ٢ / ٢٠ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٩/ ٣٨.
(٢٥٧) أسرار البلاغة: ١٤٧.
(٢٥٨) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٣ / ١٦٧
(٢٥٩) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ١٩١
(٢٦٠) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : ١٦٥.
(٢٦١) "هو التشبيه الذي لم يذكر فيه وجه الشبه" معجم المصطلحات البلاغية: ٢ / ١٩٩.
(٢٦٢) نهج البلاغة :١: ١٨٨ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧ / ٧٤.
(٢٦٣) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ٧٤.
(٢٦٤) "هو التشبيه الذي يذكر فيه وجه الشبه". معجم المصطلحات البلاغية :٢/ ٢١٣.
(٢٦٥) نهج البلاغة:٢ / ٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٨ / ٦.
(٢٦٦) ظ: الايضاح: ٢/ ٢٥١، ٢٥٢ .

أو بمعناه، فعندما يدعو إلى الترغيب ينتقي صورة المشبه أحسن من صورة المشبه به، فذلك مثبت في النفس خيالاً حسناً والعكس صحيح في التنفير [267].

لقد أصاب الإمام وأحسن في جميع صوره التي انتقاها من فكره اذ كان يمثل حقائق الاشياء، وطبيعة الموصوفات، بأوجه شبه مناسبة، بما يحقق الجانب البلاغي في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذا يؤدي إلى ايضاح المعنى وبيان المراد، وكان "يمثل الشيء بما هو أعظم منه في الاتصاف بالصفة أو أحسن فيه في الصورة أو المعنى، فيأتي الحسن حينئذ من ناحية الغلو والمبالغة... وتحقق تلك المبالغة فوق تأكيد المعنى غرضين مهمين، هما تزيين المشبه عند ارادة هذا التزيين وتقبيحه عند الرغبة في تهجينه"[268] .

الإمام إبتكر صوراً أصلية، مزجت بالمشاعر والاحاسيس واتحاد الفكرة مع الشكل، اذ ربط ذلك التشابه الحسي بجوهر الشعور والفكرة في الموقف[269]. وكل المعاني التي أرادها التعبير عنها أو التشبيه بها – حسية كانت أو مجردة – جاءت صادقة وقد عكست ابعاده النفسية ومشاعره، ومن ثم كانت غاية في الابداع والتصوير، وكل ما عبر عنه كان ذا قدرة على الايحاء، وكان يصل فيها إلى جواهر الاشياء، اذ كانت الافكار والمضامين واضحة وبارزة على الرغم من الظروف العصيبة التي كان يذكر فيها الإمام خطبه.

---

(٢٦٧) ظ: المثل السائر :٢/ ١٢٣.
(٢٦٨) علم البيان: ١٠٤ .
(٢٦٩) ظ: النقد الادبي الحديث: ٤٤٥.

المبحث الثاني

المجاز

المجاز:

هو الركن الاساسي في أصول البيان العربي بوصفه فناً أصيلاً يوحي بأعطاء الالفاظ طائفة من المعاني الثانوية التي ينهض بها اللفظ من خلال معنى المعنى.

والمجاز شائع في استعمال العرب، وقد استطاع المناخ العربي ان يسخر هذه الوسيلة الجديدة "المجاز" في تصوير افكاره، وتمثيل احاسيسه، فكان بذلك قد مهّد القول بتفجير الطاقات للنصوص باعطائها جملة من المعاني الاضافية. لذا عد"دليل الفصاحة ورأس البلاغة" (270)

وقد نال المجاز من اهتمام العلماء وعنايتهم مالم ينله مبحث أخر وقد أهتم به علماء البلاغة، واللغة على السواء(271). وتناولوه في كتبهم بالشرح والتفصيل والتمثيل، وهم يكادون يلتقون حول مفهوم عام للفظة المجاز وهو استعمال الكلام في غير ما وضع له او الكلمات المستعملة فيما لم توضع بازائه، وقد كان الجرجاني هو السباق لهذا الفن - المجاز - في تحديد مفهومه واقسامه اذ قال: "أما المجاز فكل كلمة اريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والاول فهي مجاز "(272).

نجد المجاز في طبيعة الانسان الذي يود أن يعبر عن مكنونات نفسه فيستخدم الالفاظ التي تبرز ما انطبع في نفسه من مشاعر وأحاسيس و"لان البلاغة تقوم في أصل معناها على ارادة المتكلم ايصال معنى من المعاني أو فكرة من الافكار إلى الشخص المقصود بالكلام، حسب كيفيات معينة تتحدد بنوع العلاقة القائمة بين الدال والمدلول" (273).

وقد يقترن الاستعمال الحقيقي بالتعبير المجازي لتأكيد حقيقة كبرى، فهو يفجر روافد بلاغية جديدة ذات اطار في محاكاة غير المحسوس للمحسوس، ومماثلة الادراك في غير المدرك، لانها تنقل الصورة إلى داخل النفوس بما تضفيه المجازات في الخطب من ابعاد جديدة (274) ، نرى الإمام يسند الاحساس إلى الجماد، فيصفه بالفاعلية لتتوجه النفس اليه وينحصر الحدث به وكأنه فاعله، فقد استطاع عن طريق المجاز تكييف النصوص في خطبه نحو المعنى المراد، دون توقف لغوي أو معارضة من دلالة اللفظ المركزية، وذلك حسب ما أراده من اثارة النفس اوالهاب العاطفة أو اذكاء الشعور في حالتي الترغيب والتنفير (275). وقد ورد المجاز في خطب الإمام بضربيه العقلي واللغوي.

فالمجاز العقلي: من اساليب البلاغة العربية تشير إلى مدى البيان والايجاز اذ ان الالفاظ لم تنقل عن الأصل اللغوي الموضوعة أزائه، ولكن يعرف عن طريق التركيب والاسناد في الكلام ولا علاقة له بالالفاظ، اذ " ان كل جملة اخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من الفعل لضرب من التأول فهي مجاز" (276) وقد سمي عقلياً لرجوعه

---

(٢٧٠) العمدة :١/ ٢٦٥، ظ: المثل السائر:١/ ٨٨ ، ظ: كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والناثر: ١٥٧.

(٢٧١) ظ: الخصائص:٢/ ٤٤٢ ، كتاب الصناعتين/ ٢٧٤، العمدة:١/ ٢٦٥ ، اسرار البلاغة: ٣٢٥، دلائل الاعجاز: ٢٣٨ ، المثل السائر:١/ ٨٤، حسن التوسل : ١٠٤، الايضاح:٢/ ٢٦٥.

(٢٧٢) أسرار البلاغة: ٣٢٥، ٣٢٦.

(٢٧٣) التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره إلى القرن السادس: ٢٧١

(٢٧٤) ظ: مجاز القرآن: ٩٦.

(٢٧٥) ظ: م.ن: ٩٤.

(٢٧٦) اسرار البلاغة: ٣٥٦.

إلى العقل دون الوضع، فهو مستنبط من الجملة ومستخرج من تركيب الكلام دون النظر في لفظ معين أو صيغة منفردة وقد عدّ العلماء هذا الضرب من المجاز "كنزاً من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الابداع، والاحسان، والاتساع، في طريق البيان، وان يجئ بالكلام مطبوعاً مصنوعاً وان يضعه بعيد المرام قريباً من الافهام" [277].

وقد توسع العرب في استعمال الكلمات بأكثر من معنى فرصدوا طائفة من العلاقات التي سوغت ذلك التوسع وثبتوها، والعلاقة في المجاز العقلي هي المناسبة التي تسّوغ اسناد الفعل أو معناه إلى غير صاحبه، شرط أن تكون هناك قرينة تنفي ارادة المعنى الاصلي وهي الدليل الذي يدل به على انه اريد باللفظ غير معناه الاصلي.

الإمام □ يتحرى دقة الالفاظ ليحسن الوصف ويردد الجمل ليكمل معانيه ويؤكدها، فكل مجازاته □ تعبر عن حالة شعورية اعتملت في نفس الإمام، فـ"طبيعة المجاز يحقق الابعاد النفسية التي يرمي اليها المتكلم من خلاله باعتباره عنصراً من عناصر التعبير غير المباشر، اذ لابد من أن تكون الدلالة المجازية تحمل معها عنصر الابتكار والدهشة، والمفاجأة، الذي يأخذ بمشاعر المتلقي، ويستولي عليها، حتى يتمكن من إثارة الانفعال المناسب" [278].

كان التعبير بالمجاز العقلي عند الإمام □ يعجب به، لما فيه من تلوين الافكار وتوليد للصور وبعث للإيحاء بما هو ملائم لطبيعة المعاني.

فمن كلام للأمام □ قال لأصحابه في ساحة الحرب وفيها معنى الحث على القتال:

"إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ وَيندر السواعد والأقدام "[279]

لقد أسند □ الفعلين "يفلق- يطيح" إلى الضرب نفسه، والضرب لا يفلق الهام ولا يطيح العظام، وأنما هو صاحب الضرب، والعلاقة التي اباحت أو سوغّت هذا الاسناد، السببية، والقرينة المانعة من ارادة الاسناد الحقيقي هي ادراكنا بعقولنا أن الضرب نفسه لا يفلق ولايطيح وانما من قام بالضرب وهم أصحاب الإمام كما نجد "ان الملابسات بين المسند والمسند اليه من القوة بدرجة لا تخفى والكلام في حقيقته ليس إلا ضرباً من الترابط بين الأثر والمؤثر، والعلائق زادت الذهن وضوحاً بارزاً، وهذا الوضوح المعنوي هو الذي برزت علاماته في العبارة"[280]. وكان □ يلجأ إلى المجاز لينقل إلى أصحابه انفعالاته ورغبته في تصوير ما ينبغي أن يكون عليه قتال أصحابه في المعركة.

استعمال الإمام □ للمجاز هنا فيه إعمال للفكر، فقد اشاع□ روح الحركة في قوله أعلاه والسبب يعود إلى مرونة التعبير المجازي الذي افاض قابلية الحس والتمكن في هذا الأمر المعنوي، وهو الحث على القتال، فالمجاز العقلي هو الذي نتوصل اليه بحكم العقل، ودلالته في الجملة تكشف عن حقيقة مراده، فالالفاظ التي كان يأتي بها الإمام □ لم تنقل عن أصلها اللغوي فهي تدل على ذاتها الوضعية بذاتها، والكلمة تجتاز موضعها في اللغة إلى مقارب له أو مشابه، وهذا ما ورد في قوله □ من خطبه له كان يستنهض بها أصحابه إلى جهاد اهل الشام، وفيها يحثهم على القتال، قال:

"اللهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ والدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَها إلا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ وَالإبْطَاءَ عَنْ إعْزَازِ دِينِكَ فَإنَّا نَسْتَشْهِدُك عَلَيْهِ بِأكْبَرِ الشَّاهِدِين شَهَادَةً.. "[281].

يسعى الإمام □ إلى التأكيد على أن الاصل هو المقالة العادلة غير الجائرة، فعلى أي مسلم من أصحابه ان ينظر إلى هذه القضية دون غيرها، وعندما يتأكد من ذلك سيندفع إلى نصرة الإمام□ لو كان من يريد أن يتبع الحق، فاذا اسند الفعل إلى نفسه دون هذا المجاز، فقد يتأول بعضهم غير ما يريد ولذلك اثر هذا الاسلوب في الحجة على أصحابه.

وقد أراد □ بقوله "العادلة"، المستقيمة وهي الدعوة إلى الحرب والقتال لتحطيم الشر والفساد و "الجائرة" نقيض العادلة أي المنحرفة فقد أسند □ اسم الفاعل "العادل - الجائر" إلى غير الفاعل الحقيقي، فقد وظف الإمام □

---

(٢٧٧) دلائل الاعجاز: ١٩٤، ١٩٥.

(٢٧٨) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية:٢٠٨.

(٢٧٩) نهج البلاغة: ٢/ ٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة: أبن ابي الحديد: ٨ / ٨.

(٢٨٠) علم البيان، دراسة تاريخية: ١٤٦.

(٢٨١) نهج البلاغة: ٢/ ١٩٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١١/ ٦٠.

المجاز هنا كي يصور هذه الاحداث بهذه الصورة المثيرة تنبيهاً للضمائر وتوجيهاً للعقول وتأثيراً على النفوس، وكأن مهمته هو اذكاء الحفيظة في نفوس أصحابه لتلافي التقصير المتعمد في القتال من اجل نصرة الحق.
والعلاقة سببية، لان في المقالة ما يوضح الطريق الحق والمصلحة في الدين... فقد أضيف اسم الفاعل لتضخيم الحدث وليتجه التفكير نحوه.
هكذا نجد القدرة الابداعية في نصوص الإمام □ كلها على التلازم الذهني بين الأصل الحقيقي للألفاظ والفرع الاستعمالي لمناسبة ما تنقله من معنى أولي الى معنى ثانوي.
ومن قول أخر له □ وفيها معنى الفخر في خطبه له بعد وقعة النهروان ، قال:
"رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا لِلهِ أَمْرَهُ، أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، واللهِ لأنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ، فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي، فَإذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي وَإذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي" [282]
ولا أعلم نصاً في التسليم لله عز وجلّ، والسير على نهج رسوله في الطاعة كهذا النصّ في أبعاده الايحائية والرمزية، فهو المصدّق لا المكذّب، بل هو أول المصدقين فلا يكون العكس أبداً. طاعة سبقت البيعة، وميثاق يمتلك الرقاب، وهنا تتجلى الفكرة تتبع الفكرة، والحركة توالي الحركة: التسليم ، التصديق، الطاعة، الميثاق، الصبر، الوفاء بالعهد، ولان النبي□ أوصاه بالصبر على دائه، وليس في وسعه إلا ان يسمع ويطيع، لأن طاعة الرسول امانة في عنقه"[283]، فبيعته للخلفاء جاءت بسبب طاعته للرسول□ قد أسند السبق إلى الطاعة على سبيل المجاز العقلي للعلاقة السببية.
ومرة أخرى يوظف الإمام □ المجاز من المعنى نفسه في العلاقة ذاتها- السببية- من خطبة له يصف فيها أصحاب رسول الله □ وذلك يوم صفين، حين أمر الناس بالصلح، قال:
"وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه نَقْتُلُ آبَاءَ نَا وأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنا ذَلِكَ إلا إيمَاناً وَتَسْلِيماً ومُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ وَجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ"[284]
وهنا تبدو قمة الفداء والتضحية الخالصة في سبيل هذا الدين القويم بالاجهاز على أعدائه وإن كانوا ذوي رحم وقربى، تصريحاً منه لما كانوا عليه أيام رسول الله□ إذ يقتل المسلمون أباءهم وأبناءهم واخوانهم واعمامهم بأمر الرسول وهم على يقين من دينهم، وما يزيدهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً وفي ذلك إشارة إلى القتال، وفي هذا مجاز ليس في ذوات الكلم والالفاظ، ولكن في الاحكام العقلية التي أجريت عليها، فالقتل كان سبباً في زيادة الايمان والتسليم فقد أسند الزيادة إلى غير الفاعل الحقيقي، وهو أشبه بتجسيد القتال - وهو معنى - ووصفه بشيء له إرادة، وقد جاء "التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصوداً بنفسه ومراداً من غير تورية ولا تعريض"[285]، فقد جاء كلام الإمام □ لتحريك عقول أصحابه من غفلتها لتنبيه العواطف وصحوة الضمير، وكانت العلاقة – السببية- هي المسوغ لاستعمال هذه الصيغة المجازية، دون الاصل الحقيقي، وهكذا يعد "المجاز مهرباً باعتبار في التفسير والفهم، أو توجيهاً مسوغاً نحو معنى معين خدمة لغرض أو آخر، كما كان النسخ حكماً لما لايقوى المفسرون على توضيحه من تعارض بدا لهم"[286].
كان الإمام □ ينتقي من الالفاظ الموحية ما يثير الخيال وهي من أغراض توكيد المعنى في النفس، وتقريره ومن ثم إثارة الانفعال المناسب، ومنها قوله□ من خطبة له عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة، وقد كان يعني فيها التنفير من خصومه، قال:
"إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لا يَهْلِكُ عَنْهُ إلا هَالِكٌ"[287]
قد أسند□ اسم الفاعل – ناطق- لغير فاعله الحقيقي – الكتاب- والعلاقة سببية، فقد جاءت هذه الالفاظ موحية،

(٢٨٢) نهج البلاغة:١/ ٨٩ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٢/ ٢٩٥.
(٢٨٣) في ظلال نهج البلاغة :١/ ٢٤٢ .
(٢٨٤) نهج البلاغة: ١/ ١٠٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد: ٤/ ٣٤.
(٢٨٥) دلائل الاعجاز: ١٩٣.
(٢٨٦) المجاز وأثره في الدرس اللغوي: ١٧٣.
(٢٨٧) نهج البلاغة:٢ /٨١ ،ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٩/ ٢٩٥، ٢٩٦.

لأن القرآن- الكتاب- هو مادة للتعليم ومصدراً للأحكام وأساساً للعلاقات والمعاملات مع بعضهم بعضا ولذا جاء بـ"ناطق" تعبيراً عما يوحيه من أمور الدين والدنيا فـ"المعاني الجديدة في عملية ابتداعها لا يمكن ادراك حقائقها إلا بالتعبير عنها، والتصوير اللفظي لها، والمجاز خير وسيلة للتعبير عن ذلك بما يضيفه من قرائن وما يضفيه من علاقات لغوية جديدة توازن بين المعاني والالفاظ"[288]

وظف الإمام المجاز العقلي في ايضاح ما كان يبغي ايضاحه لأصحابه، فمن قوله وقد أستبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين، وكان في معنى المناظرة والجدل، قال:

"أَمَّا قَوْلُكُمْ أَكُلُّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ فَوَ اللهِ مَا أُبَالِي أَدَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ.."[289]

جاء المجاز العقلي ذو العلاقة السببية مرة أخرى -خرج الموت إلي- فالفعل "خرج" أسند إلى الموت، والموت لايخرج، وإنما عدم مبالاة الإمام في تعرضه للموت سواء دخل هو إلى الموت أم خرج، فقد أدرك ان من طبع الانسان ان يضع حاجزاً بينه وبين الموت، لذلك قال: أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي، فالأمر واحد لديه، والعلاقة هي التي أباحت أو سوغت هذا الاسناد، والقرينة المانعة من إرادة الاسناد الحقيقي هي ادراكنا بعقولنا ان الموت لايتحرك، فهو أمر مدرك غير محسوس، وهذا الاستعمال حقق للإمام إظهار قدرته على مواجهة الموت في الأحوال كلها.

وهكذا فقد تلونت أساليب الإمام معبرة عن مخزون العقول، كاشفة عن مكنون النفوس، ولقد جعل الإمام المجاز أداة نفسية، قام بتسخيرها حسب ارادته لإثارة أصحابه فالمجاز هنا يحقق وظيفة نفسية فـ"الابتكار في الاسلوب وهو يصدر عن موهبة طبيعية أو طول مران، وخير الكلام ما نقدر به على الظفر بأفكار جديدة في يسر، والكلمات الغريبة تروعنا ولا تفيد، بل قد تدخل في باب العجمة إذا كثرت في الكلام، والكلمات المبتذلة لا تثير إلا ما سبق أن علمناه، والمجاز هو خير ما نقف به على أفكار جديدة"[290].

وإذا كان المجاز في حقيقته كاشفاً عن دواخل النفس الانسانية، فالإمام إنما يحكي فيه التجربة الانفعالية، وما يحيط المناخ العام من مؤثرات أملتها عليه ظروف أصحابه وبيئته في التلون والاختلاف وتشعب الاراء، فيحذرهم تارة، وينذرهم تارة أخرى، عسى أن يستفيقوا من غفلتهم، فيعود الوعي نابضاً، فمن تصريح إلى تلميح، ومن كناية إلى تعريض، ومن حقيقة إلى مجاز، وانظر إليه وهو يستعرض الفتن المستقبلية بشفافيته الخاصة، وإدراكه العظيم بمجريات الأمور، فلا يألوهم جهداً من التعريض والنقد فيقول:

" أَلا وَفِي غَدٍ- وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئ أَعْمَالِهَا وتُخْرِجُ لَهُ الأَرْضُ أَفَالِيذ كَبِدِهَا وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ"[291]

جاء المجاز مرة أخرى لكي يعبر عما يجول في فكر الإمام من نقد وتعريض لبعض أصحابه، فقد أسند الفعل - تخرج - إلى غير فاعله الحقيقي- الأرض- وكأن الأرض هي من تخرج ما في باطنها من كنوز ومعادن، والمسوّغ لهذه العلاقة هي المكانية فاسناد الخروج للأرض، هو إسناد مجازي جاء على سبيل التوسع في الكلام .

المجازات هنا تضيء المعنى لقوة البواعث النفسية الشديدة عند الإمام فهو لم يسلك الطريقة المعتادة في ابراز الصفات مباشرة، وانما عبر عنها بهذه الصياغة المجازية، فبدت الصور أكثر جمالاً وإثارة، ولانه "يمثل استجابة واضحة لمنطق العقل وتصوراته فما وافق تصورات العقل فهو حقيقة وما لم يوافقه إلا بتأويل فهو مجاز "[292]

أما الضرب الثاني من المجاز فهو مجاز من طريق اللغة وهو "إن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداء في اللغة واوقعها على غير ذلك أما تشبيهاً- الاستعارة- وأما لصلة ملابسة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنه-

---

(٢٨٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٥٢.
(٢٨٩) نهج البلاغة: ١/ ١٠٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤/ ١٢ .
(٢٩٠) النقد الأدبي الحديث: ١٢٢.
(٢٩١) نهج البلاغة : ٢١/٢، ٢٢ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٩/ ٤٦.
(٢٩٢) المجاز في البلاغة العربية: ١١٣.

المجاز المرسل.."[293].
المجاز المرسل سمي مرسلاً لأن الإرسال في اللغة، الإطلاق، والقدماء ذكروا أنواعه وإن لم يسموه وهو تعبير موحي ينقل الذهن آفاق من المعرفة يحققها اللفظ على حقيقته.
يوظف الإمام المجاز المرسل لخدمة أفكاره وكما هو معلوم بأنه "فن متسع رحب ينبسط بين يدي الأديب البليغ ليعبر عما يستجد في حياته من مدلولات وليجسد مشاعره وأفكاره بلا عائق من قيد لغوي غير الذوق السليم، والاسلوب العربي الأصيل الذي يرسم شواهده الفنية وأسس التعبير وسبيل التفنن" [294]
وعلى الرغم من قلة استعمال الإمام لهذا النوع من المجاز- والسبب على ما يبدو أنه وجد في الصورة البيانية الأخرى الطريق الأسهل لمن يسمع في إيصال أفكاره ومشاعره عند مسيره إلى الشام فخطب بها، وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين وكانت في معنى التشجيع وبث الروح المعنوية، قال:
"أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَة فأنهضهم معكم الى عدوكم وأجعلهم من أفراد القوة لكم " [295]
أراد بالنطفة نهر الفرات، والنطفة الماء القليل، لذا يكون التعبير مجازاً مرسلاً، والعلاقة التي سوّغت هذا المجاز هي الجزئية، أي إن اللفظ المذكور جزء من المعنى المقصود، فانه ذكر الجزء- الماء القليل (النطفة)- وقد اراد به نهر الفرات وهو الكل، وقد جاء بهذا المجاز، فقد كان يريد أن يبث الروح المعنوية في داخل نفوس أصحابه ويحاول أن يذلل لهم ما يمكن أن يتصوروه عظيماً عليهم، فالاساس النفسي الذي قصده الإمام وهو وضع صورة أو معنى أو حالة مكان أخرى، وينشأ ذلك حينما تندمج فكرتان، تدل الكلمة عليها بدلا من فكرة واحدة فأساسه المعنى المزدوج، ولذا يسميه البعض الشعور المزدوج، ومرجع هذا الاندماج إلى الخيال والوجدان ثم إلى ابراز عملهما بصورة لغوية [296] .
كما استعمل قوله (أردت أن أقطع هذه النطفة) على وجه الاستعارة أي اتجاوز، ليدل بذلك على أن ذلك أمر هين لاسيما وإنه أراد بالنطفة ماء الفرات، ولان قيمة المجاز المرسل، وقدرته على التأثير والتأثر، تعتمد على مهارة الشاعر والكاتب في اختيار الالفاظ الموحية مع ملاحظة العلاقة التي تصحح استعمال هذه الالفاظ مع الجو الايحائي الذي كانت تثيره عند ابناء عصر ذلك الشاعر والكاتب[297].
وقد ورد المجاز المرسل في هذا النص شاملاً لثلاث من محاسنه [298] ، فقد أفاد المبالغة وإيمان الإمام في تحقيق غرضه من تعظيم شأن أصحابه وتصغير شأن أو سعة نهر الفرات- النطفة- ومن ثم حقق الايجاز وهو مقصد من أهم مقاصد البلاغة.
وهكذا فمهمة المجاز المرسل مهمة لغوية،" فاللفظ هو اللفظ والمعنى لذلك اللفظ – اللغة- المعنى نفسه، إلا أنه في دلالته الثانوية حينما يراد به المجاز نجده قد انتقل بتطور ذهني، وبتصور متبادل اليه في السياق، فهو في حالته الأولى، لم يتغير معناه الحقيقي في استعماله الحقيقي، وإنما بقي على ما هو عليه ، وقد كانت القرينة هي الصارفة عن هذا المعنى إلى سواه في الاستعمال المجازي، سواء كانت القرينة حالية أو مقالية" [299]
وبهذا نجد أن "المجاز بشتى أنواعه هو صورة بديلة، عن كلمة أخرى، ويبرز معناها، وتؤدي، عنه بقرينة لملابسة قوية استقرت في العرف ودلت عليه المشاهدة واستساغها الذوق ورضي بها العقل وتواطأ عليها الناس لما فيها من قوة لغوية وفكرية وشعورية تتسع لاستيعاب تطاول الازمان وتغير البيئات وتجدد الحياة" [300]
في خطب الإمام دلالات ذات أهمية مشتركة نفسية وبلاغية- بيانية- في آن معاً، وهو يعبر في هذه الدلالة

---

(٢٩٣) المجاز في البلاغة العربية:٨٨ ، ٨٩.
(٢٩٤) البلاغة والتطبيق: ٣٣٦.
(٢٩٥) نهج البلاغة: ١/ ٩٧، ٩٨، ظ: شرح نهج البلاغة: شرح ابن ابي الحديد:٣/ ٢٠١ .
(٢٩٦) ظ: الاصول الفنية للأدب: ١٠٨.
(٢٩٧) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢١٦.
(٢٩٨) ظ: علم البيان، دراسة تاريخية: ١٥٨، ١٥٩.
(٢٩٩) أصول البيان العربي: ٥١ .
(٣٠٠) بناء الصورة الفنية في البيان العربي : ٣١٤.

عن علاقة الالفاظ بالافكار، وفي تعليل بعض العلماء لقدرة الاسلوب المجازي على التاثير في نفس المتلقي قال :"إذا عبر عن المعنى باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه، واذا عبر عنه بمجازه لم تعرف على جهة الكمال فيحصل مع المجاز تشوق إلى تحصيل الكلام" [301]

فقد كانت من وسائل قوة التعبير عند الإمام هو استعماله المجازي للكلمات فتؤدي معنى المبالغة المقبولة والايجاز البليغ ، مما يفتح لاصحابه أفقاً للتفكير والتخييل، فضلاً، عن قوة التركيب داخل نصوص خطبه من مسند ومسند اليه [302] ، فأسلوب الإمام في المجاز بنوعيه كان ممزوجاً بين تقرير الحقائق وإثارة العواطف. فيستخدم الفكر والوجدان معاً، وينفذ منهما إلى الارادة ليدفع بها أصحابه إلى عمل من الاعمال المناطة بهم.

علماً" أن بين الاساليب المجازية والحقيقة اتفاقاً كبيراً إذ إن كلا منهما يقوم على النسيج اللفظي ويؤدي مهمة التعبير عن المعاني الكامنة في الصدور والعواطف المتوهجة في خفايا الضمير"[303]. لذا جاء المجاز في خطب الإمام الحربية مستندة إلى قيم انسانية باقية دخلت التراث الأدبي وبقيت حيّة دائمة التأثير. لم يكن جمالها في اللفظة المفردة، والجملة والخيال... والبناء العام... والنوع... إن هذه مشتركة يضاف اليها "الاسلوب" الجانب الأصيل الذي يرتفع بالنص إلى مستوى الروائع الخوالد ويميز صاحبه عن سواه[304]، وهذا ما رأيناه في خطب الإمام عامة وفي خطب الحرب خاصة.

---

(٣٠١) الطراز:١/ ٨٢ .

(٣٠٢) ظ: الاسلوب: ١٩٥، ١٩٦.

(٣٠٣) المجاز في البلاغة العربية: ٢٣٤.

(٣٠٤) ظ: مقدمة في النقد الأدبي: ٣٣٢.

المبحث الثالث

الاستعارة

الاستعارة :

تعد الاستعارة ركيزة أساسية من ركائز التعبير في اللغة العربية، كما تعدّ "من أبرز طرق التعبير غير المباشرة القائمة على التخييل"[305]، وقد وقعت في لغة العرب قديماً قبل ان يتحدد مفهومها الاصطلاحي، وكثر الحديث عنها، لذلك وضع البلاغيون والنقاد لحسنها وجمالها شروطاً واهتموا بها فهي "أفضل المجاز... وليس في حلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"[306].

وقد تشابهت تعريفات العلماء في تحديد هذا المصطلح – الاستعارة- في نقل المعنى من لفظ إلى لفظ، واستحداث معنى جديد في اللفظ وجعل الكلمة ذات دلالة لم تجعل لها في اصل اللغة[307].

الاستعارة: لفظ مستعار، أو تشبيه حذف وجهه، واداته، واحد طرفيه والعلاقة فيه أن يكون بين المعنى الذي نقل عنه اللفظ والمعنى الذي نقل اليه رابط معنوي يربط بين الاثنين ومن ثم تؤلف عملية إبداع جديدة تضفي على اللفظ إطار المرونة والنقل والتوسع، وتضيف إلى المعنى مزايا خاصة نتيجة هذا النقل الذي قد دلّ على معنى أخر لا يتأتى من اللفظين خلال واقعه اللغوي.

وقد لخص الجرجاني مزية الاستعارة وفائدتها وقيمتها في التعبير اذ قال :"انها تبرز هذا البيان ابداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وانك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحدة من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضلة مرموقة، وخلاصة موموقة، ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ.. بها يكون الكلام في حد البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة.." [308]

والاستعارة تعطي الأديب إمكانية التعبير بألفاظ غير محددة، وتسلمه إلى عالم من الخيال يتناسب ووحدة شعوره، وشدة انفعاله فالخيال هنا مكمل لما تعجز عن أن تعبر عنه، ويعد أداة لاستيفاء ما يشعر به من نقص بأزاء لغته، وكثير من علماء العربية عدّوا الخيال العربي "هو المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذيه الشاعر فهم اذ نجحوا في فرض مقاييس لغوية أو نحوية أو عروضية معينة- وأجمع الادباء و العلماء والشعراء أنفسهم على احترامها- إلا أنهم لم ينجحوا حقاً في حد الخيال الشعري المتجدد لان ذلك يخضع قبل كل شيء لا إلى التقليد والرواية وإنما يخضع إلى ذات الشاعر ونفسيته والى تربيته وبيئته وظروفه" [309].

فتشبيهات العرب هي أساس الاستعارة، وهي صورة لما أدركه العرب في بواديهم وما تمضي عليه حياتهم اليومية، فلا تعدو أوصافهم ما يرونه ويجربونه.

نرى الإمام في كثير من المواضع يعبر بالصورة الملموسة المحسوسة عن المعنى الذهني او الحالة النفسية فتتوثق صلة المتلقي أو القارئ بالمعنى، ومن ثمَّ تستقر في ذهنه، وتؤثر في فؤاده، وتتجاوب اصداؤها في نفسه فيمتلئ بها احساساً وشعوراً ويعرف ما فيها من مغزى واضح وجلي أو خفي مستور.

جمال الاستعارة عند الإمام يرجع إلى أنها تصوّر المعنى تصويراً يحقق الغرض مع ايجاز في اللفظ وشيء من المبالغة المقبولة وتفتح آفاقاً للتفكير والتخييل، فقوة الصورة من قوة الاسلوب[310].

كثر التصوير بالاستعارة كثرة بينة في خطب الحرب للإمام فقد كانت الوسيلة الرئيسة عنده.

---

(٣٠٥) الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية: ٢٢١.

(٣٠٦) العمدة :١/ ٢٦٨.

(٣٠٧) ظ: البيان والتبين: ١/ ١٥٢، كتاب الصناعتين: ٢٧٤، العمدة:١/ ٢٦٨، اسرار البلاغة:٢٨_٦٥، المثل السائر:٧٠/٢،بديع القرآن:١٧، حسن التوسل: ١٢٦، الايضاح:٢/ ٢٧٨.

(٣٠٨) اسرار البلاغة: ٤١.

(٣٠٩) النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف: ١٢٥.

(٣١٠) ظ: الاسلوب: ١٩٦.

ولقد كان نصيب الاستعارة المكنية [311] ، وافراً في خطب الحرب للإمام فمن خطبته في حث أصحابه على القتال بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام، قال:

"وَقَدْ قَلَّبْتُ هذَا الأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ"[312]

شبه الأمر وهو معقول بمحسوس له بطن وظهر وقد حذف المشبه به وابقى بعض لوازمه- البطن والظهر- ومعنى ذلك تحققه من الأمر، والوقوف على أنحائه اذ تدبره ملياً فكانت الاستعارة المكنية أقدر على تجسيد ما يريد، وقد عدّ الجرجاني هذا القسم من صميم الاستعارة قائلاً:"وهو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها"[313] حيث أخذ المعنى المشترك في هذه الحالة من التصورات العقلية المحضة.

وقد ذهب اغلب أهل البلاغة الى إن الاستعارة المكنية أبلغ من الاستعارات الأخرى- التصريحية- "وذلك لان الانتقال فيها من الحد الذي يوهم أنه لا نقل في الكلام"[314]

ومن المعنى نفسه في حث أصحابه على القتال في بعض ايام صفين، قال:

"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ وَتَجَلْبَبُو السَّكِينَةَ" [315]

لقد جمع الإمام في هذا القول بين استعارتين وكلما جمع بين عدة استعارات كان الكلام أروع وأجود وذا إيحاء شديد التأثير[316] . والمراد بهما، الاستعارة الأولى: هي ملازمة الخشية والتقوى كما الشعار يلازم الجلد، والاستعارة الثانية في جعل السكينة جلباباً، وهنا أبرز المعقول المجرد بصورة المحسوس الملموس، اذ عمد إلى نقل اللفظ من أصله في اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلي إلى مكان أخر لأجل الأغراض التي ذكرت من التشبيه والمبالغة والاختصار، كما نراه يمزج الشعور باللفظ والمعاني المجردة بالصور الحسية، وكما يبدو ان الإمام يعمد إلى الاستعارة عندما يشعر ان اللغة الأعتيادية عاجزة عن التعبير عن انفعالاته.

وتعدّ- الاستعارة- عند الإمام اسلوباً مشرقاً من أساليب الصور الفنية التي تجمع إلى جنب العمق في نقل اللفظ واضافة المعنى الحس والحياة.

ويوظف الاستعارة المكنية مرة أخرى في المعنى نفسه، حين ورد خبر غزو الأنبار بجيش معاوية فلم ينهض أصحاب الإمام ، قال:

"قَاتَلَكُمُ اللهُ لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً"[317]

من بليغ كلام أمير المؤمنين، فقد جعل التهمام وهو الهم: ما يشرب ففيه استعارتان ايضاً، شبه التهمام بما يشرب واشار إلى شيء من لوازمه وهو الجرعة لفظة "جرع" وما توحي به من تقزز النفس من مشروب الهم، فضلاً عن أن الفعل "جرّع" وتشديده هكذا يومئ الى الامعان في التجريع مرة بعد أخرى، والاستعارة الثانية فقد جاءت "أنفاساً" لمعنى العبء الذي لقيه منهم – أي أنهم جرعوه الهم مرة بعد أخرى نفساً بعد أخر- فما ان ينتهي النفس الأول حتى يأتي الثاني.. وهكذا، فقد تضافرت الاستعارتان لتجسيد مراد الإمام مما بدر من أصحابه لعدم طاعتهم لأمره.

لقد علل البلاغيون أنس النفس بالمدركات الحسيّة أعظم من أنسها بالمدركات المعنوية، ذلك أن الحس هو الطريق الأول لادراك النفس ومعرفتها[318] . هذا التشخيص قد أعطى الصورة ومنحها حيوية وفعالية أكبر في التأثير، وهذا ما نجده في استعارات الإمام.

---

(٣١١) "وهي التي اختفى فيها لفظ المشبه واكتفى بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه": معجم المصطلحات البلاغية:١/ ١٤٥.

(٣١٢) نهج البلاغة: ١/ ١٠٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤/ ٦.

(٣١٣) اسرار البلاغة: ٦٠.

(٣١٤) المجاز في البلاغة العربية: ١٢٤.

(٣١٥) نهج البلاغة : ١/ ١١٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٥/ ١٦٨.

(٣١٦) ظ: نهاية الايجاز: ٩٠.

(٣١٧) نهج البلاغة:٧٠/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٨٠/٢.

(٣١٨) ظ: اسرار البلاغة: ١٠٩.

ويستثمر الإمام الاستعارة المكنية هذه المرة وهو يصف فيها أصحاب رسول الله وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح، قال:

"وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلا اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ"(319).

يشير إلى أن البيت لايقوم إلا على العمود، أما الايمان فهو يحتاج إلى التربة الصالحة للنمو حتى تخضر أعواده، فقد وهب الإمام للجماد العقل والحياة، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس لأن تذكير المسلمين بأصحاب رسول الله قد يحرك فيهم شعوراً يدفعهم لسماع الإمام وطاعته، فقد أنزل الاستعارة منزلة الحقيقة وذلك أنه استعار الوصف المحسوس للشيء المعقول وجعل تلك الصفة ثابتة لذلك الشيء في الحقيقة(320).

ومرة أخرى يعود الإمام ويوظف الاستعارة نفسها في اسلوب نقد وتعريض لأصحابه في احدى خطبه المشتملة على الملاحم إذ قال:

"عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَ هَا بِأَنْيَابِهَا"(321)

جعل الإمام من الفتنة قالباً حسياً، فشبهها، بحيوان، فاغر فمه حتى برزت الانياب، وهي تصطك انطباقاً على من أثارها وأرادها وعبر عن ذلك بأبنائها، وذلك مشهد يوحي بفضاعة الامر من جهة، وفظاظة النتائج من جهة أخرى، ولهذا نجد أن أمثال هذه الاستعارات النابضة "تشكل مثالاً للأدب الذي يؤلف بين الفن والغاية النفعية الالتزامية اذ مهما اضطربت نفس الخطيب وازدحمت بالانفعالات فانه لايتخلى في عبارته عن الاداء البليغ والصور الفنية وسنة الايحاء والتمثيل"(322)

والمتلقي يجد الإمام في هذا يستنطق الكلمات ويوضح العلاقات الخفية التي تعبر عن كوامن النفس فكان يربط بين الاشياء المتباينة، فالاستعارة كانت ثرية بعلاقات جديدة ذات دلالات عميقة كما استعمل الاستعارة التصريحية (323) ، التي لاتسمح كثيراً باحالة الفكر، لان المقارنة بين طرفيها تكون واضحة ومع ذلك كانت دلالتها عميقة ايضاً.

كما قال من المعنى نفسه في نقد وتعريض من رفض مبايعته، قال:

"اتَّخَذوا الشَّيْطَانَ لأَمْرِهِمْ مَلاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً"(324) .

الإمام يضفي على من اتبع الشيطان صفة من اتخذ الشيطان ملاكاً طهوراً يجب اتباعه، والشيطان نفسه اتخذ هؤلاء اتباعاً يأتمرون بأمره، وحبائل يتمسكون بها عند إتباع الهوى ومجانبة الرشاد، فهم لم يكتفوا باتباع الشيطان وانما جعلوه ملاكاً ومالكاً لأمرهم وموجهاً لرغباتهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الشيطان نفسه جعل هؤلاء شركاء له فيما يريد، فقد أعطت الاستعارة هنا صورة مفزعة لحال هؤلاء لمن عنده بقية ايمان في قلبه، وساعدت على ترسيخ ايمان أصحابه بانه على حق بعد أن تخيلوا هذه الصورة لخصومهم.

نجد الاتحاد وشدة الامتزاج بين المشبه والمشبه به هو الذي يجعل الصورة في الاستعارة أكثر مبالغة منها في التشبيه وابعد أثراً وكأن الإمام كان يعلم تماماً أن "الاستعارة إنما تستند أصلاً إلى نقل وأدعاء وعلاقة مشابهة.. وإن الادعاء لا يجعل من الكلام حقيقة ذلك لانه يقوم على مفهوم النقل ومتى ما عرفنا ان المتكلم قد أنكر مفهوم النقل ايضاً فاننا سنقرر في شيء من الاطمئنان ان الكلام حقيقة بالنسبة له"(325) .

إذ قال في الخوارج:

"بعــْداً لَهُـمْ كَمَـا بَعِـدَتْ ثَمُـودُ، أَمَّـالَوْا أَشْـرِعَتِ الأَسِـنَّةُ إِلَـيْهِمْ وَصُـبَّتِ الـسُّيُوفُ عَلَـى

---

(319) نهج البلاغة:١/ ١٠٥ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٤/ ٣٤.
(320) ظ: حسن التوسل: ١٢٨.
(321) نهج البلاغة:١/ ١٩٥، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١٠٠ .
(322) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٢٨.
(323) "هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه" معجم المصطلحات البلاغية: ١/ ١٥٥.
(324) نهج البلاغة:١/ ٤٢ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٢٢٨.
(325) المجاز في البلاغة العربية: ١٢١.

هَامَاتِهِمْ"[326]

شبه وقع السيوف على رؤوس الخوارج بصب المياه من جهة سرعة نزولها عليهم واختيار الهامة دون أجزاء الرأس الأخرى يعطي توكيداً للموت الحقيقي، فجاءت الاستعارة هنا ممزوجة من لوني الحياة المادي والمعنوي [327] ، فسرعة سقوط السيوف على هاماتهم جاءت معبرة عن حركة النفس ومشاعرها الوجدانية فـ"صبّت" صورة حسيّة والتي كان لها أثر في النفس ومن ثم كانت الصورة الاستعارية متفاعلة الأطراف.

كما ورد في إحدى خطبه وهو يصف خصومه، أصحاب الجمل، باسلوب النقد والتعريض ايضاً، قال :

" وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هذَيْنِ الأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ، وَلاَ نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ"[328] .

جمع الإمام في هذا القول بين استعارتين أيضاً، فقد استعار، الإرعاد والإبراق للوعيد والتهديد، ومن ثم استعار السيل للأصابة، والمطر لتحقق الفعل، ففي الاستعارة الأولى، "الضوضاء والجلبة أمارة الجبن والعجز، وهو صفة أصحاب الجمل الذين ارعدوا وأبرقوا بلا مطر، وإن الصمت والسكون امارة الشجاعة والبطولة وهي من صفات الإمام "[329] .

اما في الاستعارة الثانية فيقول " ان أصحاب الجمل في وعيدهم وإجلابهم بمنزلة من يدعي انه يحدث السيل قبل احداث المطر! وهذا محال، لان السيل إنما يكون من المطر؛ فكيف يسبق المطر! وأما نحن فانّا لا ندعّي ذلك، وإنما تجري الامور على حقائقها، فان كان منا مطر كان منا سيل، واذا أوقعنا بخصمنا أوعدنا حينئذ بالايقاع به غيره من خصومنا" [330]

فكلامه كان نقداً وتعريضاً كما عبر هنا عن المبالغة في الحدث بنجاح، فهي شرط في الاستعارة دون المجاز[331] ، ولا يخفى ما في هذه الاستعارة من حرص الإمام على تطمين أصحابه إلى ما ستؤول اليه نتائج المعركة القادمة، بعد أن كثر التهديد من الطرف الأخر، فجاءت الاستعارة تحمل في دلالتها اشارات النصر القريب، المتمثل بسيل الماء بعد المطر، فبدت الاستعارة هنا منسجمة مع الحالة النفسية ومعبرة عنها، اذ ان تفاعل عناصر الصورة الاستعارية مع بعضها ومع التجربة الشعورية والجو النفسي مما يعطيها قدرة وفاعلية في التأثير والاثارة [332]، وهذا ما سنلمسه من الاستعارة التي وظفها الإمام في إحدى خطبه في الاستنصار على قريش، قال:

"اَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِينُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي.." [333]

قصد الإمام أن قريش هم رهط رسول اللهوهم رهط الإمام كذلك، فالدعاء عليهم من الإمام يستوقف السامع، اذ كيف يدعو على رهطه، وهنا يأتي دور الاستعارة في تسويغ هذا الدعاء من خلال تهويل عمل هؤلاء حينما قطعوا رحم الإمام، وهذا ما يتنافى مع تعاليم الدين، ويخرج عنه، فالذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل هو جرأة على أوامر الله تعالى، ولهذا استحق هؤلاء هذا الدعاء من الإمام فلقد نهضت الاستعارة بتهويل هذه الصورة، لأن الرحم يستدعي المحافظة، على الصلة فكان القطع أشد إيلاماً، وتتضح قيمة الاستعارة من قدرتها على تجاوز العلاقات اللغوية المألوفة بين الالفاظ، وخلق علاقات جديدة بينها تسمح بتوسيع دلالتها ومن ثمَّ أكسبتها قدرة على الايحاء بالجديد من المعاني.

كما نجد الاستعارات المتوالية في أحدى خطبه وكانت في توبيخ الخارجين عليه، فيقول:

---

(٣٢٦) نهج البلاغة: ٢/ ١٠٢ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١٠/ ٧٥.

(٣٢٧) ظ: الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية: ٢٢٥.

(٣٢٨) نهج البلاغة: ١/ ٤٢، ٤٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٢٣٧.

(٣٢٩) في ظلال نهج البلاغة: ١/ ١١٧.

(٣٣٠) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٢٣٧.

(٣٣١) ظ: حسن التوسل: ١٢٨.

(٣٣٢) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٢٣.

(٣٣٣) نهج البلاغة:٢/ ٨٥ ، ظ : شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد:٩/ ٣٠٦.

" فَلأَ نْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ" (334)

كان اختلاط الامر عند بعض الناس، هو الذي كان وراء اختيار الإمام لهذه الصورة، فقد استجمع تفصيلات موضوعه وعرضها في أسلوب موجز مكثف، فنقب الباطل كفيل باظهار الحق، بل لعل الحق لا يُعرف إلا إذا كان هناك باطل، ففي قوله "لانقبن الباطل" استعارة مكنية، فقد جعل الباطل أشبه بما ينقب، فحذف المشبه به، وأشار إلى الفعل الذي يكون دونه وهو التنقيب، وهناك استعارة مكنية أخرى، فحتى يخرج الحق من جنبه فقد شبه الباطل بذي جنب فحذف المشبه به وأشار إلى "الجنب" وهو أحد لوازمه، وكان في القول كله استعارة تمثيلية(335)، فقد شبه حاله في اظهار الحق بحال من ينقب الباطل ليظهر الحق منه.

ويعود الإمام مرة ثانية ويستعمل صورة مشابهة لما أوحاه في النص السابق اذ بدا التمثيل في غاية اللطف، إذ قال:

" وَأَيْمُ اللهِ لأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ"(336)

لقد كانت خطب الإمام مشبعة بروح التقوى والدعوة لمظاهرة الحق على الباطل والدين على الدنيا "وكأنه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالباً عليه، ومحيطاً به، فاذا بقر ظهر الحق الكامن فيه"(337)، فقد بدا لنا "الحق" داخل كائن حي ممتليء، عبر عن هذا الكائن "بالباطل" فحتى يصل إلى الحق، عليه ان يبقر بطن الباطل وأختار "الخاصرة"، لأنها أكثر المناطق إماتة للباطل حتى يظهر الحق على حساب موت الباطل دون عودة، اذ تبدو اللفظة محيطة بمعناها إحاطة شاملة، كما يبدو المعنى في إطار صورة حسية، وبتأثير الانفعال والاحساس، هي أقرب إلى النفس، لأنها أكثر حرارة، وحيوية وصدقاً.

فالتمثيل في النصين أو الاستعارتين "يقوم على التشبيه المنتزع من مجموع أمور الذي لايحصله لك إلا جملة من الكلام أو أكثر لأنك قد تجد الالفاظ في الجمل التي يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها في اللغة" (338)، فالامام لايتحدث عن الباطل والحق بظاهر الكلام دون باطنه، بل على العكس، فان أيمانه الراسخ بحقه هو الذي أورى لديه ذلك الغضب.

مثلما قال بصيغة المناظرة والجدل موظفاً الاستعارة لخدمة هذا الغرض عندما استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين، قال:

"فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إلا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي"(339)

إن الإمام يستثمر الاستعارة لاثارة قضايا فكرية في أذهان أصحابه وخصومه، فاذا كان الهدف من الاستعارة هو تحريك الخيال أو ضربٌ من الخيال، فإن الإمام استطاع ان يحرك الذهن بواسطة الخيال.

فالضوء الذي يجسده الإمام قادر على هداية من يعشو لانه سيستدل به ولو بعد حين وذلك "لأن بصائر أهل الشام ضعيفة،فهم من الاهتداء بهداه كمن يعشو ببصر ضعيف إلى النار في الليل"(340) إذ يومئ إلى أن الحق واضح لمن يرى، أمّا من يعشو فلعله يهتدي فالاستعارة هنا قد أفادت "شرح المعنى وفعلت في النفس ما لا تفعله الحقيقة وتفيد تأكيد المعنى والمبالغة فيه والايجاز وتحسين المعنى وابرازه، ثم هي إلى جانب ذلك كله طريق للتوليد والتجديد، لانها تكشف عن صورة جديدة ومعانٍ بديعة"(341).

ومن كلام آخر للإمام في عتاب وتقريع بعض أصحابه من اهل العراق، قال:

"وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عَلِيٌّ يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمُ اللهُ فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ أَعَلَى اللهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ

---

(٣٣٤) نهج البلاغة:١/ ٨١ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد :٢/ ١٨٦.
(٣٣٥) ظ: معجم المصطلحات البلاغية: ١/ ١٥٦.
(٣٣٦) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٠ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ١١٦.
(٣٣٧) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١١٦.
(٣٣٨) اسرار البلاغة: ٢٢٠.
(٣٣٩) نهج البلاغة: ١/ ١٠٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤/ ١٣.
(٣٤٠) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤/ ١٣.
(٣٤١) البلاغة العربية: ٢٢٧.

آمَنَ بِهِ، أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، كَلا وَاللهِ وَلَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وَيَلُمِّهِ كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ"[342]

وهنا نجد الإمام يشير بمرارة وخيبة أمل إلى سعة علمه الفياض الذي لم يستطع أصحابه ولا أتباعه من الافادة الجادة به، فعمد إلى التعبير عنه بقوله "ويلمّه كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء" فإن الاكتيال للبضائع عادة ما يكون بثمن يقابلها قيمتها، ومع إن الإمامقد بذل علمه للغادي والرائح، ولكنه لم يجد له حملة، ولا صدوراً واعية تستوعب هذا الكنز المتموج بالمعارف الالهية، فهو والحالة هذه لا وعاء له ولا آنية، وقد أتاهم عفوياً وفطرياً، كما تأتي البضاعة لمريديها دون ثمن أو مال، وفي ذلك من مرارة الشكوى والالم، لأنه يسير إلى نفاسة نصائحه، وعلومه ومعارفه، ولكن لا يعبأ بها، ولا يستمع اليها، ولايهتدى بضوء نورها.

الاستعارة هنا حولت "الاشياء المعنوية إلى صورة حسية فتجعل الشيء مرئياً أو مسموعاً أو ملموساً أو مذاقاً، فتيقظ النفس للأحساس به أحساساً قوياً كاملاً"[343] ففي قوة الشبه بين الطرفين تحسن الاستعارة ويقبح التشبيه[344].

وكما ذكرنا سابقاً بأن الإمام يجمع بين أكثر من أستعارة في النص الواحد حتى تبرز لنا الصورة أكثر ايحاءاً وتاثيراً ففي قوله من المعنى نفسه في عتاب أصحابه وتقريعهم عند ورود خبر استيلاء معاوية على اليمن، قال:

"مَا هِيَ إلا الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا"[345]

وحينما منّي الإمام بتثاقل أصحابه من الجهاد قال "ما هي إلا الكوفة اقبضها وأبسطها" ويحتمل ان يريد الإمام سلطته وسيطرته على الكوفة كما يسيطر الانسان على يده في القبض والبسط في صورة حسية نابضة، أو قد يريد بذلك هيمنة المالك على ملكه يتصرف به أنى يشاء، دون معارض أو دون من لايملك حقاً في التصرف، وقد جاء هنا على سبيل الاستعارة التصريحية.

على ان هناك وجهاً آخر تعتد به في إرادة الإمام باعتبار الكوفة كالثوب او البساط القابلين للقبض والبسط، فحذف المشبه بذكر شيء من لوازمه.

وعلى الرغم من أن المعاني التي تمثلت في بعض خطب الإمام تبدو في مجملها، شائعة يسيرة لكنها ظهرت في حلة بلاغية، حتى تبدو للسامع وكأنه يسمعها أول مرة لتمكنها من نفس السامع، كما إن عناية الإمام بالواقع النفسي بما يثير عواطف سامعيه فالاستعارة لديه وليدة الخيال، والادراك الحسي للأشياء يقوم على الحقيقة.

ومن قول أخر للإمام وقد جاء فيه تهديد لعدوه وإنذاره من خطبة له في ذم الناكثين، قال:

" وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ"[346]

وهنا نلتمس الاستعارة التمثيلية، وقد سماها القزويني بالمجاز المركب[347] ، والمعنى في قولهان من يطلب أمراً بعد فواته كطالب الرضاعة بعد فطمه وقد ذهب لبن أمه، وقد ارسلها الإمام مثلاً، ووجه الشبه هو الحالة الحاصلة من عدم إدراك الشيء وبلوغه بسبب فواته، وقد كان الإمام يدرك في حدسه أن الصورة أبلغ من الفكرة، لهذا كثرت الصورة الواقعية في خطبه وفي استعاراته التمثيلية خاصة[348]، ممثلة عواطفه التي كانت تترجح بين الغيظ والنقمة والتهديد والوعيد والحث والتحريض مفعمة باليأس والمرارة، كل ذلك كان محاطاً بـ"حلة بيانية التي تشرق فيها اللفظة اشراقاً وتتمزق عبرها حجب النفس والأشياء، فيأتي المعنى وهو ينطوي على معانٍ، وترد اللفظة

---

(٣٤٢) نهج البلاغة: ١/ ١١٩، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٦/ ١٣٤.

(٣٤٣) القرآن والصورة البيانية: ١٧٣.

(٣٤٤) ظ: حسن الصنيع: ١٦٠.

(٣٤٥) نهج البلاغة: ١/ ٦٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣/ ٣٣٣.

(٣٤٦) نهج البلاغة: ١/ ٥٩، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٣٠٤.

(٣٤٧) "هو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه أي تشبيه احدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالاخرى، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه" الايضاح: ٢/ ٣٠٤.

(٣٤٨) ظ: نهج البلاغة: ١/ ٤٣ ، ٦٧ ، ٢/ ٢٣٣.

وكأنها تنطوي على الفاظ، وتجعل علياً إمام البلاغة بقدر ما هو إمام الدين والسياسة"[349].

كما نجد إمتزاجاً لعناصر الاداء البياني بطرق ابداعية متباينة مع الاستعارة في تكوين صورة أو هيئة معينة، وإن الباعث الأول لخطب الإمام في الحرب هو الانفعال الذي توحدت فيه ذاته وموضوعه وبالتالي يخرج كلامه مزيجاً من الفنون البلاغية عامة ومزيجاً من عناصر البيان خاصة.

وقد جسد في إحدى خطبه الخاصة بالحرب، شكواه، إذ قال:

"فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا وَعَلا سَنَاهَا"[350]

نجده قد وظف الاستعارة المكنية لتهويل صورة الحرب فقد شبه الحرب بالنار ولكنه حذف النار وابقى ما يدل عليها وهو قوله :"شب لظاها" على سبيل الاستعارة الترشيحية[351] .

كما نجد إلى جانب هذه الاستعارة كناية عن شدة الحرب أو ابتدائها بشبوب اللظى وعلو السنا... والكناية هنا عن صفة فوجود الاستعارة إلى جانب الكناية قد زادت الصورة التي اراد الإمام توضيحها فجاءت صادقة التعبير ذات ايحاء وتأثير ورسمت بحق ما يحدث من الحرب عند وقوعها.

وفي قول أخر له يصف فيها شدة الحرب من إحدى خطبه، قال:

" وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا"[352]

فقد جعل الحرب كالبحر المائج الغاضب فالامام "يعمد إلى الصورة التي تطرأ عليها ظلال خيالية يضفرها العقل ويحفزها بحيث تتوازن العوامل الانفعالية والعقلية والخيالية، ومهما أشتد خياله ونأى، فانه يغترف من معين العقل بقدر ما يتخضب بخضاب العاطفة"[353] فقد استطاعت الاستعارة المكنية هنا إلى جانبها الكناية أن ترسم لنا حقيقة مشاعر الإمام ومدى إحساسه تجاه الحرب عند وقوعها وما يمكن أن تخلفه فهي كالبحر، هذا ما أراد أن يصوره لأصحابه.

ومن قول آخر للإمام لأصحابه في بعض أيام صفين وهو يحثهم على القتال مزاوجاً بين عناصر الاداء البياني ـ الاستعارة مع الكناية- في تجسيد كل ما يريد ان يومئ به إلى أصحابه، فيقول:

"وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَاوِدُوا الْكَرَّ واسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ"[354]

الإمام هنا اراد بالعين الرعاية والعناية والحفظ، وقد كنى عن صفة الباري عز وجل أي حمايته ورعايته، إن ثقافة الإمام وخبرته العميقة بطبائع النفس البشرية أختار العين كي يطمئن أصحابه بأن العلي القدير يراهم ويعلم اعمالهم، ودعم ذلك بأنهم إنما يسيرون إلى الجهاد بقيادة ابن عم رسول الله فهو يمثل رسول الله في أهدافه ونظراته، وفي ذلك ما فيه من قوة الدّفع ورصد البعد المعنوي لدى المقاتلين إن كانوا مؤمنين حقاً.

ومن خطبة أخرى قالها عند مسيره إلى الشام، إذ قال:

"وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هذِهِ النُّطْفَةَ"[355]

تحمل هذه الخطبة في طياتها تهديداً وإنذاراً فقد استعمل "أقطع" على وجه الاستعارة أي اتجاوز ليدل بواسطة الاستعارة، إن ذلك أمر هين، ومن ثم عمد إلى استعمال لفظة "النطفة" وهي الماء القليل، وكان يريد "بالنطفة ماء الفرات"[356] ، لذا يكون التعبير مجازاً مرسلاً لعلاقة الجزئية، أما العنصر الثالث يمكن أن يفهم من سياق العبارة وهو أراد كناية الفرات ولأن "معاني الإمام في خطبة تصدر جميعاً، عن انفعال صادق، فانه يتوسل اليها بالفكرة

---

(٣٤٩) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٣٤.
(٣٥٠) نهج البلاغة : ١/ ٦٧ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ٦١.
(٣٥١) "هي التي قرنت بما يلائم المستعار منه، أو هي ان يراعي جانب المستعار ويولي ما يستدعيه ويضم اليه ما يقتضيه": معجم المصطلحات البلاغية: ١/ ١٥٣.
(٣٥٢) نهج البلاغة: ١/ ١٩٥ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١٠٠.
(٣٥٣) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٥٦.
(٣٥٤) نهج البلاغة: ١/ ١١٤، ١١٥ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٥/ ١٧٣.
(٣٥٥) نهج البلاغة :١/ ٩٧ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد :٣/ ٢٠١.
(٣٥٦) شرح نهج البلاغة:ابن ابي الحديد:٣/ ٢٠١.

المشبعة بالغلو في طبيعة أدائها، يومي إلى ذلك من شدة إيغاله في التفكير وادراكه من المعاني نهاية مطافها"[357] .

وهكذا فالحلة الجمالية بلغت أوجها في استعارات الإمام إذ تعاظم الأداء الخيالي والانفعالي دون أن تتدنى الثقافة والمضمون الانساني على الرغم من اللحظات التي كان يبث فيها خطبه.

خطب الإمام كانت ثرية بالاستعارات فكان اختياره للألفاظ موفقاً وعرضها بهذه الطريقة الاستعارية أوسع دلالة وايحاء لألفاظها وأخيراً كانت ذات بعد خيالي ونفسي وغالباً ما يقيد المجردات بتعبيرات حسية تساعده على تتبع تفاصيلها ولأن "الخيال أو التصوير مرده إلى قصور الالفاظ ومعانيها الحقيقية عن التعبير عما يشاهده الاديب في حياته النفسية الداخلية من مشاعر.. فيتحول من مجاز إلى مجاز ومن استعارة إلى استعارة"[358] ، فهي أعلى مراتب الفصاحة[359]، وهي "أشرف ما يعد في القواعد المجازية وأرسخها عرفاً فيه"[360] ، وهكذا كانت بلاغة الاستعارة عند الإمام آتية من ناحيتين: فبلاغته من ناحية اللفظ كان تركيبها يدل على تناسب التشبيه ويحملنا عمداً على تخيل صورة جديدة، وبلاغته من الناحية الثانية من حيث الابتكار وما تحدثه صورة من أثر في نفوس سامعيه فخرجت استعارات الإمام حاملة لكل الخصائص الفنية التي تتميز بها الاستعارات الصائبة من[361] :

١- الانتقال بالنص من الجمود اللفظي المجرد إلى السيرورة في التعبير والمرونة في الاستعمال.
٢- إعطاء صفة الفعل لمن لا يفعل وصفة من يعقل إلى ما لايعقل.
٣- تهويل الأمر،ودقة المبالغة، وشدة الوقع.
٤- إنّ في تعبيراته إشاعة الحياة في الجماد وإضافة الحركة عند الكائنات وكأنها ناطقة تتكلم ومكلفة تتمثل، وقادرة تتصرف.

فقد صحبها ميل إلى النظر العقلي وسبل المنطق وبيناته فهو يصور فكرته ويستعير لها.

وكما يبدو فقد كثر التصوير بالاستعارة في خطب الحرب وتضمنت ما يربو على الخمس والستين استعارة وقد اخَذَتْ الاستعارة المكنية أكثر من الثلاثين استعارة، والسبب يعود، إلى ما أوتي الإمام من ملكات ومواهب فضلاً عن نهجه الاسلوب القرآني في تصوير المعنويات والحسّيات، فالاستعارة أقوى إيحاءً من التشبيه لما تتضمنه من سعة الدلالة وقوة التصوير.

---

(٣٥٧) فن الخطابة :ايليا الحاوي: ١٥٦.
(٣٥٨) في النقد الادبي: ١٥٠.
(٣٥٩) ظ: الاتقان في علوم القرآن:٣/ ١٤١.
(٣٦٠) الطراز:٣/ ٣٣٤.
(٣٦١) ظ: أصول البيان العربي: ٩٤.

المبحث الرابع

الكناية والتعريض

الكنـايـة:

تعدّ الكناية ركناً من أركان البيان، فلها من الأثر ما للتشبيه والاستعارة، وبها تبرز المعاني المعقولة في صورة المحسوسات، وبذلك تكشف عن معانيها وتوضحها وتبينها وتحدث انفعالاً تعجز اللغة الاعتيادية عن تصويره.

ولا يكاد يخلو أثر من الأثار النقدية والأدبية من الكلام عن الكناية وبلاغتها[362] ، وإن أختلفت بينهم أسماؤها والقابها وأقسامها وإن لم تبتعد عن معناها وهو "أن تتكلم بالشيء وتريد غيره ..."[363] أي إنك تطلق اللفظ ولا تريد به ظاهره، ولكنك تريد به معنى آخر يتبعه ويسايره في الارادة والاداء.

وقد تبلور تعريف الكناية على يد عبد القاهر الجرجاني قائلاً: "أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به اليه ويجعله دليلاً عليه"[364] .

و"على هذا تتصدر الكناية مرتبة متميزة في كيان البيان العربي، فالتعبير بالكناية له منزلة التصوير بالاستعارة، فكل منهما يصدر عن ذائقة فنية، وقيمة بلاغية تتعلق بفن القول"[365] ، فاذا نظرنا إلى الكناية وجدنا حقيقتها انها اثبات لمعنى نحن نعرفه من طريق العقل، والنظر، دون طريق اللفظ، فهي تعبير عن معانٍ بألفاظ يعبر بها عن معانٍ أخر، ولكن لتلك المعاني الجديدة صلة ولزوماً بالمعاني الأصلية، وبادراكها يمكن التوصل إلى المعاني الحقيقية التي هي غاية الكلام فـ" الصورة الكنائية تولد اقناعاً اكبر بالمعنى الذي تشير إليه بتوكيده وتقريره في نفس السامع؛ لأن النفس يكون تقبلها للمعاني أسرع، وآكد مشفوعة بالشاهد والدليل"[366] وذلك أبلغ في إثباتها بنفسها.

فالكناية أسلوب تزيده المبالغة حسناً، لانه يقرب الفكرة المجردة من الصور المحسة، فتستحيل المبالغة فيه بلاغة، والارادة معنى جديداً، وبذلك يمتزج الاثر البياني بالاحساس الداخلي عند المتكلم، ليقدم للمتلقي ما تعبر عنه النفس من مشاعر كامنة، لم يصرح بها تصريحاً، بل لمح اليها تلميحاً ولهذا قيل: "الكناية أبلغ من التصريح"[٣٦٧].

و"لعل أسلوب الكناية من بين أساليب البيان هو الاسلوب الوحيد الذي يستطيع به المرء أن يتجنب التصريح بالعبارات المستهجنة التي تدخل في دائرة الكلام... إذن. اللغة المهذبة في الكناية مصدر إيحائي من مصادر الفكر العربي والقرآني"[368]

وقد جاءت الكناية في خطب الحرب للإمام زاخرة بالحياة والتصوير الفني، فقد اختار من الألفاظ والعبارات ما يرى فيها قوة ووضوحاً وجمالاً ليجسد المعاني والأفكار التي يريدها لتفعل فعلها في نفوس أصحابه وخصومه على السواء.

فمن أقواله في خطبه الحربية التي كان للكناية فيها دور بارز في التعبير عما يدور في فكره في حث أصحابه على القتال، منها قوله لأبنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل، قال:

" تَـزُولُ الْجِبَـالُ وَلا تَـزُلْ، عَـضَّ عَلَـى نَاجِـذِكَ، أعِـرِ اللهَ جُمْجُمَتَـكَ، تِـدْ فِـي الأَرْضِ قَدَمَكَ"[369]

كرر الامام استعماله لعبارة "عض على ناجذك" في حث أصحابه على القتال في خطب الحرب[370]، لـ"إن

---

(٣٦٢) ظ: كتاب الصناعتين: ٣٨١، العمدة:١/ ٣٠٢، دلائل الاعجاز: ٤٥، المثل السائر: ٣/ ٤٩.

(٣٦٣) لسان العرب: مادة (كنو).

(٣٦٤) دلائل الاعجاز: ٤٥.

(٣٦٥) اصول البيان العربي: ١١٣.

(٣٦٦) دلائل الاعجاز: ٢٠١.

(٣٦٧) دلائل الاعجاز :٤٨

(٣٦٨) أصول البيان العربي: ١١٤.

(٣٦٩) نهج البلاغة: ١/ ٤٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٢٤١.

(٣٧٠) ظ: م.ن: ١/ ١١٤، ٢٣٦.

العاض على نواجذه- الاضراس- ينبو السيف عن دماغه، لأن عظام الرأس تشتد وتتصلب"[371]، فهي كناية عن الحمية[372]، فضلاً عما توحيه هذه الصورة من بث الخوف والرعب في نفوس الاعداء عند المواجهة، وتشد النفس إلى الهمة والأصرار، وتدعو بالمرء إلى الاقدام والاقتحام وانتزاع ملحظ الخوف ذاتياً، أي أن الضغط على الاضراس مما يؤكد العزيمة والمضي إلى الهدف المراد.

وكذلك قوله "تد في الأرض قدمك" أي اجعلها كالوتد وهي كناية عن الثبات، فهذه الكلمات بدت وكأنها؛ محاطة بهالة توسع من معناها وتأثيرها فـ"عض على ناجذك، وتد في الأرض قدمك" بدت أقوى من غيرها أثراً في الدلالة على الشجاعة والثبات وأصبحت مع باقي الكلمات كأنها دليل قافلتها أو قائد ركبها[373].

غاية ما يسعى الإمام إلى تحقيقه من الكناية هو التأثير والاقناع، بالفكرة أو بصدق الاحساس حتى تكون مشاركة أصحابه له بعد اقتناعهم وتأثرهم، فمن الابعاد النفسية المهمة للصورة الكنائية عند الإمام هي الهيمنة على أصحابه عن طريق توكيد المعنى المراد تقريره- وهو حثهم على القتال - في نفسه للتلازم بينه وبين ما يدل عليه ظاهر اللفظ.

ومن خطبة أخرى للإمام في المعنى نفسه في حث أصحابه على القتال في بعض أيام صفين، قال:

"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَأَكْمِلُوا اللامَةَ وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، وَالْحَظُوا الْخَزْرَ"[374]

لقد وردت في النص ثلاث كنايات متتالية وهن "عضوا على النواجذ" و"فانه انبى للسيوف عن الهام" و"الحظوا الخزر"، فقد جاءت "بطريقة اللفظ المركب، ومن ثم كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهية عكس ما إذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة"[375]. فالكلام السابق ليس على حقيقته مع جواز وروده على حقيقته فالامام فيها بالقدر الذي يريد فيه نقل أصحابه إلى المعنى البعيد الذي من أجله صاغ الصورةالكنائية، يريد ان يبقي على احتمال ارادة المعنى الاول الذي يدل على ظاهر اللفظ، ومن أجل الابقاء على هذا الاحتمال ولكي يكون وارداً فانه يسقط من الاساس القرينة التي تمنع من ارادة المعنى الظاهري ليبقى على احتمال ارادة كل من المعنيين[376].

وقوله "قلقلوا السيوف" يعني فيها سهولة جذب السيوف حال الحاجة اليها، فان طول مكثها في الاغماد يوجب صدأها وصعوبة مخرجها حال الحاجة، وهي صورة المقاتل الذي يبغي حسم امر قلقه.

وقوله "الحظوا الخزر"هو" نظر الانسان بعينه، وكأنه ينظر بمؤخرها"[377]، وهي علامة الغضب للحق، فما أراده الإمام هو ثبات أصحابه في ميدان الحرب، فكأنه يلجأ إلى الصرامة فلا يحاور، ولا يداور، بل يعمد إلى الفكرة فيلقي بها في وضوح، كما نجد ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها، وهي جارية على قوانين اللغة، سليمة من التنافر، فالصورة الكنائية مع الاستعارة - استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة- تضافرت في بيان مراد الإمام وحينما اجتمعت هذه الصفات مع تلك أعطت بالتالي حقيقة ناصعة لوضع أصحاب الإمام .

فالكناية هنا جعلت المعنى الذي اراده الإمام أوقع في نفوس أصحابه واقدر علىاحداث الاستجابة.

ومن كلام أخر للإمام في حث أصحابه على القتال من خطبة اخرى في المعركة نفسها- صفين - قال:

"وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ"[378]

وهذه لمحة مشرقة عبر عنها الإمام بالكناية عن الاضطراب وعدم الثبات بالحرب، والفرار عند الزحف، فأجمل في اللفظ وكنى عن اللفظ المنفر عادلاً عنه إلى لفظ لا تنفير فيه وكما هو معلوم أن " الصفة إذا لم تأتك مصرحاً

---

(٣٧١) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٢٤١.
(٣٧٢) ظ: نهج البلاغة: ١/ ٤٣.
(٣٧٣) ظ: الاصول الفنية للأدب: ٥٨.
(٣٧٤) نهج البلاغة: ١/ ١١٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٥/ ١٦٩.
(٣٧٥) المثل السائر:٣/ ٥٩.
(٣٧٦) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : ٢٢٩.
(٣٧٧) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٥/ ١٦٩.
(٣٧٨) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٥ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١٧٩.

بذكرها، مكشوفاً عن وجهها ولكن مدلولاً عليها بغيرها، وذلك أفخم لشأنها، والطف لمكانها، كذلك اثباتك الصفة للشيء إذا لم تلقه إلى السامع صريحاً، وجئت اليه من جانب التعريض والكناية والرمز والاشارة كان له من الفضل والمزية ومن الحسن والرونق ما لايقل قليله ولا يجهل موضع الفضيلة فيه"[379]، وهذا ما اعتمد عليه الإمام في الكناية، فلو جاء تعبيره عن الهرب مصرحاً به لولّد الجو النفسي الذي يوحيه التصريح بها في نفس أصحابه انفعالاً منفراً للأنطباعات المرتكزة في ذهنهم عنها، وكأنه عمد إلى التسامي والترفع في الصورة الكنائية من اجل خلق جو نفسي ايحائي خاص عند أصحابه فالدلالة الايحائية الجديدة للكناية تختلف عن الدلالة الايحائية التي يخلقها التعبير المباشر[380].

ومن الخطبة ذاتها بقوله في المعنى نفسه ايضاً.

"وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ، وَالأنْفُ الْمُقَدَّمُ، والسَّنَامُ الأعْظَمُ"[381]

أراد أن يكني عن المنزلة والمكانة المتقدمة لأصحابه بعد أن كنى فرارهم من ميدان القتال، عاد بهم إلى مكانة العرب، فهم أهل الشجاعة والبطولة فبدت "هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف... وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفلق والخطيب المصقع"[382].

لقد ولدت هذه الصورة اقناعاً أكبر بالمعنى الذي تشير اليه بتوكيده، وتقريره في نفوس أصحابه بأنهم أصحاب ماض مشرف في البطولة والشجاعة، فكانت دلالة الكناية، معنوية عقلية[383].

ويبقى موظفاً للكناية في المعنى نفسه في حث أصحابه على القتال، والجهاد في سبيل نصرة الحق، إذ قال:

"فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَـآزِرِ، واطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ"[384]

وهذه العبارة من أبلغ عبارات التحريض على القتال والنضال فالمرء إذا شد عقد ازاره، فمعنى ذلك انه قد شمر للحرب تشميراً، مبتعداً عن العثار، ومجدّا في المسيرة، ومسرعاً في المشي"فضلاً عن أنه أمن من إنحلالها فيمضي في قتاله غير خائف" [385].

وقوله "أطووا فضول الخواصر"يصور "ما فضل من مآزركم يلتف على اقدامكم فاطووه حتى تخفّوا في العمل ولا يعوقكم شيء عن الاسراع في عملكم"[386].

فالكناية هنا أعطت صورة الجد في العمل والتأهب والأسراع في مضمار الجهاد من الحق المفضي إلى الفوز والنصر الأكيد.

ومنه أيضاً قوله من خطبته في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه؛ قال:

" وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً، وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتّى لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ"[387]

العضّ على الأسياف ليس حقيقة، وإنما هو صورة عن ملازمة أصحابه للضرب بها من اجل الحق فهي كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام، وهي كناية فصيحة، شبه قبضهم على السيوف بالعض[388]، والسبب في اختياره لهذه الصورة هو المبالغة في صبرهم وثباتهم في الحرب، وجاءت الكناية هنا لتدل على شكوى الإمام ممن أرادوا القضاء عليه فصور أصحابه - شيعته- منهم من قتل غدراً وجاء بالكناية لكي يفخم من صورة الطائفة الثانية ممن تمسكوا باسيافهم حتى قتلوا ولقوا الله صادقين.

---

(٣٧٩) دلائل الاعجاز: ٢٠١.
(٣٨٠) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٣٣.
(٣٨١) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٥، ٢٠٦.
(٣٨٢) دلائل الاعجاز: ٢٠١.
(٣٨٣) ظ: م.ن: ٢٧٩.
(٣٨٤) نهج البلاغة:٢/ ٢٣٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١١/ ١٤٢.
(٣٨٥) م.ن: ٢/ ٢٣٤.
(٣٨٦) م.ن:٢/ ٢٣٤.
(٣٨٧) نهج البلاغة :٢/ ٢٠٣ ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:١١/ ١٢١.
(٣٨٨) ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:١١/ ١٢١.

ومن المعاني الأخرى التي جاء الإمام بها هي العتاب والتقريع في أصحابه فكانت الكناية خير ما عبر به الإمام عن هذا المعنى.

فمن خطبة له في استنفار الناس إلى أهل الشام، قوله:

"إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ، دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ"[389]

قصد الإمام من "دوران الاعين اضطرابها من الجزع، ومن غمره الموت يدور بصره فانهم يريدون من غمرة الموت الشدة التي تنتهي اليه"[390] فقلق العينين استجابة حقيقية لما يخاف منه الانسان، فقد وظف الإمام الكناية في تصوير ما في نفوس بعض أصحابه من الخوف والتقاعس عن القتال من أجل نصرة الحق، فلم يصرح الإمام عما يدور في دواخل أصحابه من هلع وخوف فجاء بالكناية حتى تظهر الحقيقة ولكن بأطار من العتاب كونهم من أصحابه.

وقد كرر الإمام عتابه وتقريعه بصورة كنائية أخرى من الخطبة نفسها، قال:

" وَمَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلا زَوَافِرِ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ"[391]

قصد الإمام بأن أصحابه ليسوا ممن يستند عليهم ويمال بهم على العدو بما يمتلكون من عزة وقوة، فالكلام كناية عن عدم الاتكال عليهم لضعفهم وذلتهم، فالكناية عنده "ليست مجرد فكرة أداء معنى بالفاظ لا تدل على ظاهر مدلولها، وإنما هي صياغة فكرة تنبع من وجدان صاحبها- الإمام- فتتماسك الفاظها وتتسق تعبيراً لكل لفظ منه مكانه ووشيجته التي تربطه بما اتى قبله وبما يردد بعده، فيومض بالمعاني وظلال المعاني والاحاسيس ايماضاً لو تزعزع ذلك اللفظ أو سواه عن موقعه لعجز التعبير كله عن أداء مهمته البلاغية"[392]

عمد الإمام إلى استعمال الكناية فيمن خالفوه الرأي سواء في الخلافة أو الرأي، فمن قوله في خطبته بحق أصحاب الجمل بعد المعركة وهي تحمل في طياتها نقداً و تعريضاً، قال:

"لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ، فَوُقِصُوا دُونَهُ "[393]

فقد صور مناوأتهم له في أمر الخلافة، وفشلهم في الوصول إلى الأمر الذي كان يرومون اليه بمن "رفعوا أعناقهم ومدوها لتناول امر وهو مناوأة أمير المؤمنين على الخلافة فوقصوا، أي كسرت أعناقهم دون الوصول اليه"[394]، وسبب توظيف الإمام الكناية هنا، لانه وجدها وسيلة من وسائل تحقيق القصد في النيل من الخصم والنكاية به من غير أن تمسه مساً ظاهراً مكشوفاً[395].

ومنه قوله من خطبة له في تخويف أهل النهروان، وفيها جاءت الكناية بمعنى التهديد والانذار، قال:

"فَأَنَا نَذِيرُكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هذَا النَّهْرِ .. وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ سُفَهَاءُ الأَحْلامِ"[396]

قوله "اخفاء الهام" كناية عن ضعف عقولهم وقلة مداركهم وأساس استعمال الإمام لهذه الصورة هو نفسي يتمثل في التلميح الى ما كان يبغيه الإمام من أنهم سيلقون حتفهم وإنَّ ما أوصلهم إلى ذلك هي قلة مداركهم فيما

---

(٣٨٩) نهج البلاغة: ١/ ٨٢ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ١٩٠.
(٣٩٠) م.ن : ١/ ٨٢.
(٣٩١) نهج البلاغة: ١/ ٨٣.
(٣٩٢) البلاغة والتطبيق: ٣٧٩.
(٣٩٣) نهج البلاغة: ٢/ ٢٠٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٩/ ٣٠٩.
(٣٩٤) م.ن: ٢/ ٢٠٣.
(٣٩٥) ظ: علم البيان: دراسة تأريخية : ٢٦٠، ٢٦١ .
(٣٩٦) نهج البلاغة: ١/ ٨٦ ، ٨٧ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ٢٦٥.

يفعلونه، فكان يحذرهم من خلف ستار وينقلهم إلى ما ستؤول اليه نهاية أمرهم نقلاً رقيقاً مؤدباً[397]، ولاعتبارات نفسية بعضها يرجع إلى الإمام، لمنزلته الرفيعة لايليق به أن يجري بعض الالفاظ غير مستساغة السمع على لسانه.

كما قال في المعنى نفسه لما عزم على حرب الخوارج وقيل له أنهم قد عبروا جسر النهروان :

"مَصَارِعُهُم دُونَ النُّطْفَةِ، وَاللهِ لايُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ"[398].

جاءت الكناية في هذا النص لتؤكد معنى التهديد والانذار وقد عنى بالنطفة هي "ماء النهر، وهي أفصح كناية عن الماء وإن كان كثيراً جماً"[399]. وهكذا هو الإمام يعمد إلى فك الالفاظ من قيود الاستعمال المألوف، وكنى نهر الفرات بالنطفة اراد أن يوحي لاصحابه بأنه على الرغم من سعة نهر الفرات إلا أنّهُ جاء بلفظة "النطفة" تصغيراً لشأنه وقصد فيها أيضاً تهويل الأمر على الخوارج، فلا يفلت منهم عشرة وهذا ما حدث فعلاً.

ويرتفع مستوى الاداء في الصورة، عندما يشترك في تكوينها أكثر من عنصر بياني، فالكناية تبدو أكثر فاعلية عند إنضمامها إلى الاستعارة فتمنح الصورة مزيداً من الايحاء والتأثير.

منها خطبته بعد غارة الضحاك صاحب معاوية بعد قصة الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه، ولما جاء فيها من ذم بعض أصحابه من المتخاذلين، قال:

"أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أهْوَاؤُهُمْ، كَلامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأعْدَاءَ"[400]

جاء بالكناية هنا ليبين بأن لاصحابه قوة وشجاعة في الاقوال، وضعفاً في الافعال فقد جعل من مشاركة الاستعارة المكنية مع الكناية عاملاً في إبراز صورة أكثر ايحاءاً وتاثيراً، فبلاغة كلامهم وتأثيرها في غيرهم يفتت الحجارة الصلب، فقد أبرز المعنى المجرد في صورة محسوسة

ولاشك في إن التعبير بالصورة أقرب إلى النفس واشد إقناعاً من المعنى المجرد، فضلاً عن أيجازه في الاسلوب فـ"دلالة الكلمة الواحدة على عدة معان، يحتاج كل معنى فيها إلى التعبير عنه بلفظ خاص والاستعاضة عن هذا

(٣٩٧) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية:٢٣٠.
(٣٩٨) نهج البلاغة: ١/ ١٠٧.
(٣٩٩) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد:٥/ ٣.
(٤٠٠) نهج البلاغة: ١/ ٧٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد :٢/ ١١٢.

التطويل بلفظ الكناية الذي يحمل في طياته العديد من المعاني"[401] فاصحابه إذن رجال اقوال لا رجال اعمال وهو ما يدعو إلى الخيبة والفشل ويمثل الهزيمة قبل الحرب، فهم مهزوزون نفسياً ومتفرقون فعلياً.

ومن كلام للإمام عندما قتل الخوارج، قيل له يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم، فقال:

"كَلا وَاللهِ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلابِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلابِينَ"[402]

نلاحظ في هذا النص أن الكناية قد تأزرت مع التشبيه ومنحت الصورة القدرة على المزيد من الايحاء، فضلاً عن نقلها أدق تفاصيل الحالة الشعورية التي كان يمر بها الإمام فـ"يغدو: هو الذات وهو الموضوع في آن معاً وبهذا الانفعال- الداخلي- يحل فيها وراء الاشياء، لأنه يضيئها ويدعها تثق وتتحرك وتخفق بالحياة "[403]

جاء التشبيه البليغ حين شبه الخوارج - لما قيل له قتلوا جميعاً- بالنطف، وقد اراد بتلك انهم سيظهرون بعده ومن بعد ذلك جاء بالكناية مساندة للتشبيه فقد كنى بالقرارات عن الارحام التي تستقر بها تلك النطف، أي أن مذهب الخوارج سوف يجد اتباعاً وأنصاراً وإن النساء سوف يلدن الكثير من أمثالهم، فلهذه الصورة الكنائية الممزوجة بالتشبيه تاثير في نفس أصحابه لأن "الاثبات بها مزية لاتكون للتصريح، وإن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد على وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء هكذا ساذجاً غفلاً، وذلك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والاخر ظاهراً معروف وبحث لاشك فيه ولايظن بالمخبر التجوز والغلط"[404]

ومن جانب آخر نجده يوظف التعريض في بعض نصوص خطبه "فهو أعلى في محاسن الاخلاق وأقرب للقبول وأدعى للتواضع"[405]،والتعريض أخفى من الكناية لان دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا الوضع الحقيقي ولا المجازي[406] ومن أحسن ما جاء في التعريض قوله مخاطباً اصحابه بعد ليلة الهرير، وجاء في معنى العتاب والتقريع، قال:

"أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلى الإِسْلامِ فَقَبِلُوهُ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلى الْقِتَالِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلى أَوْلادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَصَفّاً صَفّا.."[407]

هذا الكلام أخرجه الإمام مخرج التعريض باصحابه، فاشار إلى المسلمين الاوائل بعد أن قبلوا الاسلام وأحكموا القرآن، قادهم ذلك الايمان إلى عشق القتال من أجل نصرة الحق فشرقوا وغربوا زاحفين صفوفاً، أما أصحابه فهم مسلمون ويقرأون القرآن لكنهم لم يكونوا كأولئك الاوائل، لم ينقادوا لأمره، ولا أستمعوا لقوله، وكأن الإمام استعمله للتلويح بغيره، كي يحاول أن يحرك ما بداخل أصحابه نتيجة تقاعسهم، وفي الوقت ذاته يحاول التلطف بهم فيحترز عن المخاشنة في الكلام فيسمعهم الحق على وجه يمنع غضبهم.

ومن قوله في التعريض ايضاً يخاطب أصحابه في ساحة الحرب، وفيها يحثهم على القتال فيقول:

"إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ، لا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ وُلا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ، إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لأَلفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ"[408].

هذا الكلام جاء في معرض تقرير حقيقة الموت الذي يخشاه أصحابه، فيؤكد لهم بان الموت يدرك كل الناس

---

(٤٠١) القرآن والصورة البيانية:٢٣٥.
(٤٠٢) نهج البلاغة: ١/ ١٠٨،١٠٧.
(٤٠٣) في النقد والأدب:٢/ ٢٠.
(٤٠٤) دلائل الاعجاز:٤٩.
(٤٠٥) البرهان في علوم القرآن:٢/ ٣١٣.
(٤٠٦) ظ: البلاغة العربية:٢٤٤.
(٤٠٧) نهج البلاغة ١/ ٢٣٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧/ ٢٩٥.
(٤٠٨) م.ن:٢/ ٢.

عموماً ولا ينجو منه أحد، ومن هنا فان الفرار من القتال مخافة الموت عار في الاعقاب لذا نجده يتمنى الف ضربة بالسيف على ان لايموت على فراشه فهو مدرك تماماً عاقبة من يقتل في سبيل نصرة الحق عند الله عز وجل.

فالامام يذكر أن أكرم الموت القتل ويلوح به إلى ما ليس من معناه، فيعمد إلى "التحرر من القيود التي تفل التفكير وتقف به عند حدود النظرات المباشرة للأشياء من زاوية واحدة"[409]

نفهم من كل ما سبق ذكره بان الكناية والتعريض عند الإمام[410] قد تضافرت فيهما كل الحواس والملكات، ومن ثم ربط بينها، ليثير العواطف الاخلاقية والمعاني الفكرية، لبيان حقائق الأشياء، ومهما يكن للحقائق والمعاني من شأن فإن اللغة التي تصاغ فيها أثراً في حسن الابانة"وإن كانت في الظاهر هي الكلمات، ولكنها تنطوي على كثير مما يثير الحواس الظاهرة والباطنة وفيها الوان شتى من التعبير، فمنها ما يكون قاتماً ومنها ما يكون مضيئاً، ومنها الشفاف أو المعتم ، وفيها الرخو أو الصلب، ومنها الحسي الصامت ومنها ما يشع الهاماً روحياً ووحياً وجدانياً"[411]، وما لمسناه وأدركناه من كنايات الإمام ما هي إلا منفذ للخروج من الجو الفكري المألوف أو الميدان الحسي الرتيب الذي تواضع عليه الناس، فهي"تحقق أهدافاً لغوية وفنية وفكرية"[412].

كما نجد ان الإمام علي قد أعطى المعنى الصحيح لشرط البلاغة وهو "ان يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه، متمكناً في دلالته، مستقلاً بواسطته يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك اليه أبين إشارة حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ، وذلك لقلة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله إليك"[413].

---

(٤٠٩) الأصول الفنية للأدب: ١٧٦.

(٤١٠) ظ: نهج البلاغة: ١/ ٣٠ ، ٦٧، ٦٩ ، ٨٣، ٨٨، ٩٧، ١٥٥، ١٠٧، ١١٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢/ ٢٠، ٢١، ٢٢، ٨٢، ٨٤، ٨٥.

(٤١١) الاصول الفنية للأدب : ٥٩.

(٤١٢) البلاغة والتطبيق: ٣٧٨.

(٤١٣) دلائل الاعجاز: ١٧٧.

الفصل الثالث

المبحث الأول

الوظيفة النفسية

الوظيفة النفسية :

تمتاز الخطابة في عصر صدر الاسلام، بصفاء الاسلوب ومتانته، وقوة التأثير، ووصوله إلى قرارة النفوس، وامتلاكه للشعور والوجدان، وان من اهداف أي خطيب التأثير النفسي في نفوس السامعين، كي يحقق الهدف من خطبته، خاصة في خطب الحرب التي يجنح فيها اصحابها إلى الابتعاد عن الافكار المحضة، حيث يمزجون بينها وبين غيرها من العناصر.

والوظيفة النفسية: ((تعنى بمجموعة الانفعالات التي تؤثر في النفس وتسيطر على القوى الشعورية عند الانسان، فهي تسرح في اعماقه وتشتد نحو سريرته، فتدعو إلى التبشير تارة والى التحذير أخرى، فهي مقياس التأثر النفسي والتجاوب الداخلي عكساً وطرداً، وقد كان الامل والخوف والرغبة والرهبة مجالاً لابعادها الموضوعية))(٤١٤).

جاء الإمام في خطبه الحربية بكل ما يثير في النفس انفعالاً ويثير لها حالاً من تعجب او تهويل او تشويق، فيأتي التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية في الموقع المناسب لكل منها ومن ثم يكسبها تأثيراً أكبر، من حيث موقعها في الكلام وحسب وجودها الذهني في النفس.

كان الإمام علي يعرف نفسية سامعيه وعقليتهم، فسلك المسالك الموصلة إلى اقناعهم واستثارتهم والتصرف في مشاعرهم ((اذ من الطبيعي ان يراعي في الكلام نفسية المخاطب ومستوى ادراكه وظروف الخطاب حتى يستطيع الكلام ان يؤدي دوره المطلوب في التأثير)) (٤١٥).

قد عرف كيف يتخير الكلام المناسب في اللحظة المناسبة، وكيف يجب ان ينفعل حين يقتضي الموقف الانفعال، فمن خطبته في حث اصحابه على القتال في بعض أيام صفين، محاولاً شد أزرهم بأعطائهم ابلغ الدروس العسكرية من اجل النصر، معتمداً على اثارة عواطفهم واشعال مشاعرهم، قال:

"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَأَكْمِلُوا اللاَّمَةَ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، والْحَظُوا الْخَزْرَ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ، وَنَافِحُوا بالظُّبَا، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ" (٤١٦)

لابد أن الإمام رأى من أصحابه اقبالاً وإنصاتاً لقوله ومن ثم زادهم من الدروس العسكرية على مقدار احتمالهم ونشاطهم، فلو تبين منهم تثاقلاً عن استماع قوله لخفف عنهم، فقد كانت خطبه ((في تربية النفوس، اخلاقياً، وتغذية الروح المعنوية بالقيم الانسانية الرفيعة))(٤١٧).

كثرت الاستعمالات البيانية التي بدا فيها الإمام موفقاً كل التوفيق، فجاءت عناصر البيان ممتزجة مع التجربة الشعورية ومعبرة عنها.

كل الاوصاف التي رسمها الإمام لاصحابه تهدف إلى تحفيزهم من الناحية النفسية، فقد سخر الاستعارة ـ المكنية ـ لخلق علاقة بين ملازمة الخشية للتقوى كما يلازم الشعار الجلد، وملازمة السكينة للبدن كالجلباب، فقد اختار الإمام اللفظ المناسب ليعبر عن تلك العلاقة، ومن ثم جاء بالكناية ليكمل ما يريد التأثير به على اصحابه، وكأنه يرى في عناصر الأداء البياني مرتكزاً للتعبير عن ما يريد الإمام معالجته. فـ((العض على النواجذ)) يغير ملامح وجه الانسان فيبدو امام خصمه ذا قوة وجلد وفي الوقت نفسه يزيد في مقاومة هامة الانسان للضرب، فجاءت الكناية هنا معبرة عن الثبات والصلابة، وتستمر نصائح الإمام بفنون القتال بقوله "فلقلوا السيوف في اغمادها قبل سلها" هي دعوة إلى اشاعة صوت مدوٍ وسط جيشه، فكأنه يشحذ همم المقاتلين كي يتصدوا لعدوهم. وما من شك ان "الحظ الخزر" وهوالنظر بمؤخر العين، يثير الخوف في نفوس الخصوم، ويظهر بمظهر غير المبالي بهم. وبعد ان يوصي اصحابه بهذه الوصايا يعود الإمام ليطمئن اصحابه، فالامام يتدرج في استثارة العواطف فهو يطور الفكرة والعاطفة، والصورة حتى يبلغ قمة التوضيح.

جاءت الاستعارة المتآزرة مع الكناية بقوله ((انكم بعين الله)) أي ان اصحابه في رعاية الله وحفظه سبحانه وتعالى وكأن هذه الاشارة تزيد من استعدادهم للقتال.

ومن كلام آخر للإمام لابنه محمد بن الحنفية لما اعطاه الراية يوم الجمل، يحث فيه على القتال، قال:

"تَزُولُ الْجِبَالُ وَلاَ تَزُلْ، عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ، أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَك، تِدْ فِي الأرْضِ قَدَمَكَ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ"(٤١٨)

كلام ذو جوانب نفسية متعددة، اذ يوصي الإمام ابنه، بأن يكون صلبا عند القتال وثابتاً فيه، وذلك عن

---

(٤١٤) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٨٥.
(٤١٥) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٧٦.
(٤١٦) نهج البلاغة: ١/ ١١٤، ١١٥.
(٤١٧) الأدب وفنونه: محمد مندور: ١٧٠.
(٤١٨) نهج البلاغة: ١/ ٤٣، ٤٤.

طريق ((العض على النواجذ)) وان يكون مستعداً لاستقبال الموت ولقاء الشهادة، وهو إنما يصنع ذلك فلأنه وهب نفسه لله، واعاره حياته كلها، وقد عبّر عن ذلك بقوله البليغ الناصع في الاعارة لأنفس ما يملك "أعر الله جمجمتك" ويسند ذلك بتعبير بلاغي آخر يوحي بمدى الثبات والاستقرار. والالتصاق بموطن القتال لايزول عنه، ولا يتزلزل فيه، وهو قوله "تدّ في الأرض قدمك" فلا تفكر بالتراجع او الانسحاب و"ارم ببصرك اقصى القوم" يعني ملاحظتك لجميع حركاتهم، حتى تكون على علم بكل ما يجري، ومن ثم كف بصرك عما تخافه، فأن النصر من عند الباري عز وجل.

كلام الإمام هذا يوحي بصورتين تؤثران في النفس الاولى: بث ابلغ الدروس العسكرية، فضلاً عن استلهام الروح المعنوية من هذه الالفاظ الحماسية، أما الصورة الثانية: فهي نتيجة ما بثه الإمام في نفس ابنه محمد بن الحنفية، لما توحيه تعاليمه تلك من بث الخوف والرعب في نفوس الاعداء عند المواجهة.

ومن خطبة أخرى قال وهو لايزال يحثهم على القتال ويعلمهم بأن يكونوا على أهبة الاستعداد واليقظة لما تتطلبه ساعة الحرب، فقال:

"شُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ"[٤١٩]

وردت الصور البيانية -الكناية- من اجل الايضاح، فعلى أصحاب الإمام التأهب، والاسراع، من اجل الفوز بالنصر المفضي إلى الحق، وكما هو معلوم، ان ((الخطابة في جوهر اسلوبها، تعمد إلى بث حالة نفسية او يقين وجداني حاسم))[٤٢٠] إلى ما ستؤول إليه الامور.

مرة أخرى يحث الإمام علي اصحابه على القتال، من خطبته في بعض ايام صفين، اذ قال:

"وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ. حَسّاً بِالنِّصَالِ وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ تَرْكَبُ أُولاهُمْ أُخْرَاهُمْ، كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ، تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا"[٤٢١]

قد شبه اعراب الشام في صفين، بالابل العطاش التي طردت عن حياض الماء، يريد بذلك تزاحمهم في الفرار، فلا يدرون ما يفعلون، وكنى عن ذلك بقوله "تركب اولاهم اخراهم" فقد تآزر كل من التشبيه والكناية لأجل الاثارة النفسية، ومن ثم شحذ هممهم حتى النصر فالامام ((لايكتفي بالاقناع عن طريق القول بل من واجبه ان يصل إلى القلب فيقنع عن طريق اليقين))[٤٢٢].

ومن طرق الامام في استنهاض همم اصحابه وعزائمهم في خوض غمار الحرب. عندما يرى اصحابه في حالة يأس في ساحة الحرب اي عرف نفسيتهم، يعمد إلى شد أزرهم، ومن ثم يصل إلى مواضع التأثير في نفوسهم، وان يحملهم على الهدف الذي ينشده في غير عسرة عليه ولا جماح منهم، منها قوله في الخطبة الانفة الذكر، اذ قال:

"وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ... وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ، وَالأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ"[٤٢٣]

جاء الإمام ، بالكنايات المتتالية قاصداً غرض معين يسعى إلى تحقيقه، فقال "جولتكم" ويقصد فيها عودتهم بعد الهزيمة، و"انحيازكم عن صفوفكم" أي فراركم من ميدان القتال، يحاول الإمام ان يعوض عن الالفاظ الحقيقية بالفاظ مجازية اخرى، ممكن ان تثير نفوسهم اكثر من ذكر الالفاظ الحقيقية، فجاءت الكناية موافقة لنفسيتهم المنكسرة، ومن ثم يحاول ان يرفع من شأنهم ويثير في دواخلهم تاريخ ابائهم واجدادهم، فينعتهم بنعوت الشرف العالي والمجد الرفيع بقوله "انتم لها ميم العرب ويآفيخ الشرف والانف المقدم، والسنام الأعظم".

ومن المعنى نفسه من خطبة اخرى بعد ليلة الهرير، اذ قال فيها الإمام.

"أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الإِسْلامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَى الْقِتَالِ،

([٤١٩]) نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٤.
([٤٢٠]) الخطب والمواعظ: ٢٠.
([٤٢١]) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٦.
([٤٢٢]) نظرية الانواع الأدبية: ٣٨٤.
([٤٢٣]) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٥، ٢٠٦.

فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلادِهَا"[٤٢٤]

تشبيه تمثيلي، يحاول الإمام ان يعاتب اصحابه ويقرعهم وذلك تذكيرهم بأصحاب الرسول ومن ثم المقارنة معهم، في حالة دعوة اصحابه للجهاد، فيشبه حبهم للقتال بوله اللقاح[*] إلى اولادها اذا فارقتها.

ومن أقوال الإمام في عتاب وتقريع اصحابه، نراه يرميهم في الجبن، محاولة منه في تأجيج روح الحماسة في نفوسهم ومن ثم يطلب منهم الاقدام السريع في الحرب، قال:

"وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ، لاتَأْخُذُونَ حَقّاً وَلا تَمْنَعُونَ ضَيْماً"[٤٢٥]

تشبيه بليغ، فقد شبه حال ازدحام اصحابه عند الفرار من المعركة، بحال الضباب المتراكم، فالامام يقرع اصحابه بالجبن والفشل و ((غرض الإمام من هذا هو التقريع بالجبن والتخاذل، والحث على الثبات والتعاون))[٤٢٦]، ثم يعود فيؤكد جبنهم وخوفهم بقوله "لا تأخذون حقاً ولاتمنعون ضيماً" وهي نعوت في غاية ما يكون من الذل.

اعتمد الامام، التشبيه البليغ لينقل ما يجيش في نفسه، آملاً ان يحدث الاستجابة المناسبة، يريد به ان يثير الانفعال اللازم داخل اصحابه، كي يتخذوا الموقف المناسب في اللحظة المناسبة.

أن ((الباعث الأول لخطب الإمام هو الانفعال الذي توحدت فيه ذاته، وموضوعه ونفخت فيه من غيظها، ونقمتها وسويدائها، حيناً ومما اشرق لها خلال التأمل والتفكير حيناً آخر))[٤٢٧] .

مرة أخرى يحاول الإمام ان يوظف عناصر الأداء البياني حتى يهذب نفوس اصحابه، ويهزهم هزاً عنيفاً بوقت واحد، وكلاهما مبعث نفسي متطور: تهذيب النفوس، وهز الارواح، مما يثير كوامن النفس، وعواطف الضمائر، وهو يعد دليل غضبه من تخاذلهم وتواكلهم وجبنهم، وصياغة ذلك بالتأنيب مرة، وبالعتاب الممض مرة اخرى، فيقول:

"أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ الْمُقَوِّمُ"[٤٢٨]

اعتمد الإمام هذه المرة التشبيه التمثيلي، وسيلة لبيان حال اصحابه من المتقاعسين عن القتال، ويشير بذلك إلى عدم صلاحهم على الرغم من مواعظه ونصحه لهم.

ومن الخطبة نفسها يكرر الإمام المعنى، فالتكرار زيادة في التوكيد والتأثير، معاً، فيقول:

"لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ"[٤٢٩]

وهذا التناغم بين التشبيه والكناية الواردتين في النص بما فيهما من تكثيف للمعنى، سبباً في اسباغ حيوية وايحاء واضحين على الصورة، ومن ثم، يؤثران في النفس أروع تأثير، فقد شبه الإمام اصحابه في عدم طاعتهم له، فأراد ان يقلل من شأنهم، فكناهم بالدرهم، وكنى اصحاب معاوية بالدينار، ومقدار الدينار أكثر بكثير من الدرهم.

ويستمر الإمام في عتاب وتقريع اصحابه، من خطبته في استنفار الناس إلى اهل الشام، قال:

"وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلا زَوَافِرِ عِزٍ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ ..."[٤٣٠]

كلام ليس بالقليل عبر الإمام فيه عن اصحابه، وهو يكرر المعنى ذاته، في عدم الاتكال عليهم لضعفهم وذلتهم.

جاء بالكناية هنا، معبرة خير تعبير عما يراه الإمام من حال اصحابه، وكلامه هذا يخلب الباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً، ومما حرى بأسلوب الإمام ان يكون مثالياً؛ هو الاخلاص في تصوير ما في نفسه من فكرة او عاطفة.

ومن الخطبة نفسها قال:

"إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ، وَمِنَ الذُّهُولِ

---

(٤٢٤) نهج البلاغة: ١/ ٢٣٤.

(*) اللقاح: الناقة الحلوب.

(٤٢٥) نهج البلاغة: ٢/ ٢.

(٤٢٦) في ظلال نهج البلاغة: ٢/ ٢٢٨.

(٤٢٧) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٥٥.

(٤٢٨) نهج البلاغة: ١/ ١٨٨.

(٤٢٩) م.ن: ١/ ١٨٨.

(٤٣٠) م. ن: ١/ ٨٣.

فِي سَكْرَةٍ يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ، فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فأَنْتُمْ لاتَعْقِلُونَ"[٤٣١]

"دارت اعينكم" كناية عن صفة عمد الإمام□ إلى استعمالها تعبيراً عن جزعهم واضطرابهم وفيه تصوير دقيق لما في نفوس اهل الكوفة من الخوف والجبن لملاقاة جيش معاوية، ومن ثم ، يأتي□ بالتشبيه البليغ، كوسيلة في بيان عدم اكتراثهم لما حولهم بقوله□ "كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة"، وبعدها جاء الإمام بعنصر آخر من عناصر الاداء البياني وهي الاستعارة بنوعيها -التصريحية والمكنية- وهما وسيلتان في مخاطبة العقل من غير التجاء إلى الاستمالة ومخاطبة العواطف وكأنه□ عمد إلى العقل للتأثير النفسي بدلاً من العاطفة. بقوله "يرتج عليكم حواري فتعمهون" فقد قصد الإمام بأن اصحابه لايعقلون امراً ولايهتدون إلى مراده، فقد استعمل□ عمِه للدلالة على ان ذلك العمى طبع فيهم.

ومن خطبة اخرى يذم فيها الإمام□ بعض من اصحابه المتقاعسين عن القتال، وذلك عند علمه بغزوة النعمان بن بشير صاحب معاوية لعين التمر، اذ قال:

"دَعَوْتُكُمْ إلَى نَصْرِ إخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ"[٤٣٢]

جاء □ بالتشبيه البليغ كأداة للتعبير عن تردد صوت بعض من اصحابه وحيرتهم لما دعاهم إلى نصر اخوانهم، بجرجرة الجمل المصاب وعبر عن تثاقلهم في تلبية تلك الدعوة بتثاقل الهزيل من الابل الذي اصيب في دبره، فلا يستطيع النهوض والجامع في ذلك - التشبيه البليغ - كله العجز، فقد نسب اليهم الضعف، وعدم القدرة والخذلان، محاولاً □ ان يحرك هممهم، فجاء كلامه مزيج من القوى الشعورية والقوى التعبيرية. وقد ورد الكثير من هذا التشبيه - البليغ - في خطب الإمام□ في تصوير حال بعض من اصحابه المتقاعسين عن القتال[٤٣٣].

من كلام اخر له□ بعد ليلة الهرير في عتاب وتقريع اصحابه ايضاً، قال:

"إنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَة، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ"[٤٣٤]

الإمام□ يحاول هنا ان ينبه اصحابه إلى عاقبة ما سيكون من عدم طاعتهم له، وكأنهم يجعلون من وساوس الشيطان ونفثاته طريق لحل عقد الاسلام التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فالامام□ لم يشر في هذا النص إلى وجوب طاعته على اصحابه، وانما جعل نصائحه هدية منه اليهم -اصحابه- فعليهم قبولها، لان الهدية تقبل وعليهم ان يفعلوا ذلك، فجاء□ بالاستعارة هنا لتنبيه مداركهم العقلية بالحض النفسي، وقد يحدث استجابة لديهم.

كلام اخر يحمل في طياته اللوم والعتب، حاثاً فيه اصحابه على القتال، وفيه ايضاً الم شديد ولوعة، ملقياً التبعة على المحيطين به، من احدى خطبه، وفيها يصور حالته النفسية، اذ يقول:

"قَاتَلَكُمُ اللهُ لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً"[٤٣٥]

انها الصرخة المدوية في ضمير الزمن، فقد ملأ اصحابه قلبه قيحاً حتى كاد ينفجر، وشحنوا صدره غيظاً، فبث ما فيه شكوى تستعر باللهيب، وتجرع السم الزعاف حتى طفح الكأس بما فيه، وهذه النفثات بما فيها من الآم وشكوى وتفجر عبارة عن ((صورة من صور تفاعل العملية الأدبية مع النفس الانسانية، شعوراً وحساً وفكراً وعاطفة))[٤٣٦].

الإمام جادٌّ بكل تأكيد في تكييف خطبه حسب ما يريد من اثارة في نفوس اصحابه، أو الهاب عواطفهم في حالتي الترغيب والترهيب وهما حالتان متعلقتان بالحس العاطفي، وناظرتان إلى الانفعالات الوجدانية في النفس الانسانية [٤٣٧].

([٤٣١]) نهج البلاغة : ١/ ٨٢، ٨٣.
([٤٣٢]) م.ن: ١/ ٩٠.
([٤٣٣]) ظ: م.ن: ١/ ٨٣، ١٠٣، ١٨٩- ٢/ ٢٠.
([٤٣٤]) نهج البلاغة: ١/ ٢٣٥.
([٤٣٥]) م.ن: ١/ ٧٠.
([٤٣٦]) في الأدب والبيان: ١٦٤.
([٤٣٧]) ظ: مجاز القرآن :د. محمد حسين علي الصغير: ٩٤.

وعلينا أن نعي تماماً بأن ((البلاغة احياناً تبدو .. لاتعتمد على ابتكار افكار جديدة، بل في التعبير عن الافكار من خلال حالة نفسية وجدانية، واسلوب منطقي نفسي، تجعلها تنفذ إلى نفوس السامعين، وتصبح الحالة التي يعانونها شبيهة بحالته))[٤٣٨]. منها ما جاء في شكوى اخرى اكثر الماً من سابقتها، وفيها تجد نفسية الإمام واضحة جداً للسامع، اذ قال:

"وَإِنِّي وَاللهِ لأَظُنُّ أَنَّ هؤُلاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إمَامَكُمْ فِي الحَقِّ وَطَاعَتِهِمْ إمَامَهُمْ فِي البَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاحِهِمْ فِي بِلادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَو ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قُعْبٍ لَخَشِيْتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي"[٤٣٩].

عمد الإمام إلى المقابلة بين حال اصحابه وحال خصومه، في اجتماع كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم وأدائهم الامانة واصلاحهم لبلادهم، لذا فالنصر والقوة معهم وان كانوا على باطل فالباطل قوي بتظافر اعوانه.

اما الإمام على الرغم من كون الحق لجنبه ومعه الا أنه ضعيف، بسبب تفرق اصحابه وعدم طاعتهم له. ونظراً لذلك نجد يدعو الله سبحانه وتعالى ان يبدله بخير منهم...

شكوى اخرى من خطبة له وهي في اصحابه ايضاً، اذ قال:

" فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إلا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَى، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ"[٤٤٠]

"اغضيت على القذى" و"شربت على الشجى" - استعارتان تمثيليتان - جاء الإمام بهذا النص ضمن خطبته الانفة الذكر، ليعبر بهما عن شدة صبره على سلبه حقه وحرمانه منه بأغضائه على القذى ((وما اصعب ان يغمض الطرف على قذى في العين))[٤٤١]، وشربه على الشجي وهو ما يعترض الحلق فيمنع الشراب.

وهكذا نجد يحول شعوره إلى صورة في الذهن، اذ يتولى الفكرة ومن ثم يعبر عنها بأحد عناصر الأداء البياني، فتأتي الصورة عميقة الايحاء وأكثر رسوخاً في النفس. وهذا ما جاء عليه كلامه في ساحة الحرب اذ يقول:

"إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ"[٤٤٢]

الإمام يزين الموت في عيون جنده حتى يقدموا عليه من غير وجل، فالخطيب ((المعتقد صدق ما يدعو إليه تلتهب كلماته، وتستقر في القلوب عباراته؛ لانها قبس من نفسه المشتعلة، وصورة من عواطفه المنفعلة))[٤٤٣].

كما جاء بنص اخر يصور فيه حالته النفسية قاصداً تشجيع اصحابه وبث الروح المعنوية في نفوسهم، اذ قال من خطبته اثناء مسيره إلى الشام:

"وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوَطِنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَةَ"[٤٤٤]

لقد تآزرت عناصر الاداء البياني في هذا النص من اجل التوضيح والاقناع بالافهام والمنطق، وتخير الإمام اللفظة المتينة المحكمة الاداء في موضعها، فقد استعمل "اقطع" على وجه الاستعارة أي اتجاوز، واراد "بالنطفة" الماء القليل وهو نهر الفرات لذا يكون التعبير على ان ذلك امر هين، وعلى اصحابه ان لايرتابوا من امر القتال في ذلك الموضع.

وعلى هذا نجد الوظيفة النفسية تتباين في ظاهر كلام الإمام من حث على القتال، ونقد وتعريض، وعتاب وتقريع، وتشجيع، يضاف الى ذلك بث الروح المعنوية ...الخ، لكنها تتفق في جوهرها، اذ ينوه في جميعها على حالة واحدة، ترتكز على العاطفةالتي يبثها في نفوس سامعيه لاجل طاعة الإمام والاخذ برأيه،فقد كان الإمام يقرر

---

(٤٣٨) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٣٩.
(٤٣٩) نهج البلاغة: ٦٤/١، ٦٥
(٤٤٠) نهج البلاغة: ١/ ٦٧.
(٤٤١) م.ن: ٦٧/١.
(٤٤٢) نهج البلاغة : ٢/ ٢.
(٤٤٣) فن الخطابة: الحوفي: ٢٦.
(٤٤٤) نهج البلاغة: ١/ ٩٧، ٩٨.

حقائق حتى يثير فيها المشاعر الحساسة، وكوامن النفوس تأثيراً مرة، وإقناعاً مرة أخرى.

المبحث الثاني

الوظيفة العقلية

الوظيفة العقلية:

عرض الإمام علي □ حججه وبراهينه لرفع الالتباس عن الناس، وللتحريض على القتال والحرب والجهاد في سبيل الله، بأسلوب عقلي تعبيراً عن ارادة اقناع الاخرين بدوافعه وحوافزه النضالية، ومعنى هذا أنه قد جعل العقل إطروحة بين يدي الادلة التي يريد تسخيرها بحقٍ إلى الهدف المقصود، وهذا هو التوظيف العقلي في خطب الحرب عند الإمام □.

وعلى هذا فأن الوظيفة العقلية ((تعنى بالاستدلال العقلي على ابطال الباطل وابراز الحق، ودفع الشبهة واقامة الدليل))[٤٤٥].

أسلوب الخطابة العربية عامة تمتزج فيها الادلة التي تكفل بالاقناع والتأثير معاً، وأن ((الخطيب البليغ يستطيع ان ينصر الحق كما يستطيع ان ينصر الباطل، بقوة حججه او براعته بالأقيسة والقضايا الظاهر منها والمضمر))[٤٤٦].

أسلوب الإمام □ في خطب الحرب هو اثارة الانفعال في نفوس اصحابه، وذلك بعرض الحقائق بصورة رائعة كما ادركها، وبهذا يجمع بين الافادة والتأثير. وهدف الإمام هو الوصول بالمستمعين إلى درجة التصميم على العمل، وتحفيز اصحابه على التقدم في ميدان القتال والحرب، وبفضله تتحول الافكار إلى احساسات ثم تتحول إلى ارادة وتصميم[٤٤٧]. لذا نرى الإمام يجنح إلى التعليل، وينحو نحو البراهين العقلية، دونما اثارة مباشرة للعواطف، وهذا ما جاء في كلام له □ وقد استبطأ اصحابه أذنه لهم في القتال بصفين وجاء كلامه بصيغة المناظرة والجدل، اذ قال:

"أَمَّـا قَـوْلُكُمْ أَكُـلُّ ذلِـكَ كَرَاهِيَـةَ الْمَـوْتِ، فَـوَ اللهِ، مَـا أُبَـالِي أَدَخَلْـتُ إِلَـى الْمَـوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ"[٤٤٨]

اقسم الإمام □ أنّه لايبالي، اتعرّض هو للموت أم جاءه الموت ابتداء من غير ان يتعرض له، فكان المجاز هنا خير وسيلة لتوضيح ذلك الأمر.

ويعود الإمام مرة اخرى في الخطبة نفسها، وفي المعنى نفسه - المناظرة والجدل العقليين - فيقول:

"فَوَ اللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إلا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وَذلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا"[٤٤٩]

الإمام هنا يوحي عقلياً بأن وراء اعلان الحرب واصطكاكها هدفاً إلى الهداية والارشاد حتى يهتدي الناس بنور علمه، وتسير في ضوء نهجه، وهذا الهدف احب إليه من قتل الناس وهم على ضلال، وإن رجعتْ بأثمها، وحملت اوزارها، الا ترى ان الهدى احقُّ بالاتباع من الباطل الذي يعود على المرء بالآثام؟؟.

الإمام القائد يحاول بث العزيمة في نفوس جنده، وتهوين الموت لديهم، واذكاء حماستهم، وبث الثقة فيهم فـ((أسلوب الإمام علي يبدو اكثر تماسكاً وتلاحماً بحيث لايتراكم فيه المعنى بعضاً على بعض بل يسمو الجزء اللاحق منه على الجزء السابق... فمعاني الإمام متصاعدة)) [٤٥٠].

وهكذا سلك الإمام الطريق نفسه في خطبته التي يستنفر فيها الناس إلى اهل الشام، قال الإمام□:

"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ. وَالإجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ. وَالطَّاعَةُ حِين آمُرُكُمْ"[٤٥١]

الإمام هنا يعتمد على مخاطبة العقل من غير ان يلجأ إلى مخاطبة العاطفة، فهو يتوسل العقل والمنطق الواضح

---

(٤٤٥) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٨٥.

(٤٤٦) الأدب وفنونه: ١٦٧.

(٤٤٧) ظ: نظرية الانواع الأدبية: "M. Labbe ci ovincent" : ٣٥٣

(٤٤٨) نهج البلاغة: ١/ ١٠٤.

(٤٤٩) نهج البلاغة: ١/ ١٠٤.

(٤٥٠) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٤٩، ١٥٠.

(٤٥١) نهج البلاغة: ١/ ٨٤.

المعـالم. ويبـدو الإمـام هنـا يحـول حديثـه إلـى ((حـديث فكـري يخاطـب العقـول فـي وضـوح وواقعيـة ورغبـة فـي الاقناع))([٤٥٢])، فالامام يوضح لأصحابه مالهم عليه، وما عليهم له. يحاول تذكيرهم قد ينبه ذلك عقولهم ويحثهم على تأجيج هممهم للقتال.

محاججة عقلية أخرى جاء بها الإمام من خطبته في ساحة الحرب، اذ قال:

"إنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لايَفُوتُهُ الْمُقِيمُ وَلايُعْجِزُهُ الْهَارِبُ"([٤٥٣])

ومن الخطبة نفسها والمعنى أيضاً، قال:

"وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ وَلا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ"([٤٥٤])

في النص الأول نهض التشبيه البليغ بالصورة كي يوضح بأن الموت - وهو معقول - كالطالب الحثيث نحو الشيء، ولايمكن لأي انسان ان يهرب منه ان حان اجله، فالهارب لايستطيع ان يفر منه، وليس كل من أراد الموت حصل عليه، ويكرر الإمام المعنى نفسه في النص الثاني، بطريقة أخرى فالجبان المتقاعس الفار من أرض المعركة غير مزيد في عمره بفراره.

الإمام هنا يحاول ان يكون اقرب إلى وجدان سامعيه فيعرض افكاره صوراً امام عيونهم، ويدعهم يبصرونها بقدر ما يفهمونها، وعلى هذا ترتكز خطب الإمام الحربية، فهي مؤثرة بواسطة الاسلوب التعبيري، فهي تدل على معانيها في يسر وسهولة ودقة، وتنفذ إلى الذهن والقلب معاً كما يعرف عن الخطيب البليغ ((من جعل اقدار اللغة وتصاريف الكلام مواتية لأقدار السامعين ومقتضيات الحال))([٤٥٥]).

من خطبة أخرى للإمام عند خروجه لقتال أهل البصرة في موقعة الجمل، قال:

"فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ"([٤٥٦])

استعارة تمثيلية جاء بها الإمام كوسيلة لتشبيه حاله في اظهار الحق، بحال من ينقب الباطل ليظهر الحق منه.

لقد انتهج الإمام الواقعية، فكان ينفعل ويغضب في سبيل الحق، ومما لاشك فيه أن ((الخطباء الناجحون هم الذين يتجهون إلى المشاعر يثيرونها والى العقول ليوقظونها))([٤٥٧]).

صوت الإمام هو صوت العقل المتزن، الذي يفصل فيما التبس من أمور في ميدان القتال، وهذا ما اعتمده - العنصر العقلي- فضلاً عن قوة الشعور، وجمال التعبير، قال في عتاب اصحابه وتقريعهم، قال:

"وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيٍّ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً"([٤٥٨])

"الطريق الواضح" كناية عن الحق، فهو المنهاج المستقيم، وقد كنى الإمام عن اتباعه هذا المنهاج باللفظ وهو الأخذ فكأنما الإمام القائد يلتقط الحق من بين طرق الشر المختلفة، فهو يستخرج الهدى من بين الأضاليل، ويميز الحق من الاباطيل.

خطب الإمام الحربية، مرآة لعقله، وخلقه، وطريقة تفكيره فهو يدعو اصحابه في كل خطبة الى الأخذ بسبل العقل والتأمل.

منها يصف الإمام اصحاب رسول الله من كلام له يوم صفين، وجاء كلامه بصيغة الفخر بهم، قال:

"وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذلِكَ إلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً، وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ وَجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ"([٤٥٩])

صحابة الرسول كانوا في سبيل الحق يقتلون اباءهم وابناءهم واخوانهم واعمامهم، وبأمر الرسول وهم على

([٤٥٢]) الأدب وفنونه: ١٦٧.
([٤٥٣]) نهج البلاغة: ٢/ ٢.
([٤٥٤]) م.ن: ٢/ ٤.
([٤٥٥]) التفكير البلاغي عند العرب: ٢٠٣.
([٤٥٦]) نهج البلاغة: ١/ ٨١.
([٤٥٧]) فن الخطابة: الحوفي: ١٣١.
([٤٥٨]) نهج البلاغة: ١/ ١٨٩.
([٤٥٩]) م.ن: ١/ ١٠٤، ١٠٥.

يقين من دينهم وراحة من ضميرهم.. وذلك حث على القتال، وفي هذا الكلام مجاز عقلي، قصد الإمام منه الاقناع والتأثير لينقل اصحابه من موقف إلى آخر، ويذكرهم بالقيم والمثل كلّها التي آمن بها المسلمون السابقون.

خطب نهج البلاغة عامة، تبين قدرة الإمام على جلاء المعاني والكشف عن الحجة، والايحاء باعمق الحقائق فضلا عن قوة ادراكه ((تلك القوة التي بها يعرف الانسان ويفكر ويعلل ويستنبط، وهذه القوة تحتاج في ثقافتها والتأثير فيها إلى الحقائق الصحيحة المعقولة بالبراهين الصادقة، ومعنى المطابقة بالنسبة لهذه القوة تمكين القراء والسامعين من إدراك المعاني وفهمها والاقتناع بها، وهي القوة التي تغلب على رجال العلم والفلسفة والسياسة))[٤٦٠].

تأكيد الإمام على الوظيفة العقلية بدا واضح المعالم. فمن خطبة له في تخويف اهل النهروان، وجاء بصيغة التهديد والانذار، اذ قال:

"وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهَاءُ الأَحْلامِ"[٤٦١]

"اخفاء الهام" كناية عن ضعف عقولهم وقلة مداركهم، فالامام يخاطب العقل بقدر ما يخاطب القلب، من خلال ابراز المعنى، فقد اراد من الكناية هنا ان تشد من ازر العاطفة، ومن ثم تحرك ارادة من يخاطب الإمام من اهل النهروان؛ وهم من نهاهم عن اجابة اهل الشام في طلب التحكيم، فالامام يترسم التقرير والتعبير المباشر لما انفعل به، فهو يبرز ما يريد في خطبه ويهدف فيها الكشف عن شكل من الوقائع والقيم الانسانية والحوادث ومن ثم يتناول اخلاقيات اصحابه، فمن واجبه كقائد ان يستحث الارادة في جيشه ويستثير العزيمة فيهم. ولأن ((اليقين المؤسس على العقل والادراك يبقى ثابتاً دون تحول ...وهكذا يلتزم المرء دائماً سبيل الطاعة امام سلطان العقل، فهو باسم الحقيقة والعدل والخير يعمل))[٤٦٢].

ان من اهم الخصائص العقلية[٤٦٣]، الرصد العقلي أو أثارته وهذا ما كان يفعله الإمام مع اصحابه حتى ينبه مداركهم، ومن ثم يكونوا مستقلي الارادة والاعتبار والنظر.

---

(٤٦٠) الاسلوب: ٢١، ٢٢.
(٤٦١) نهج البلاغة: ١/ ٨٧.
(٤٦٢) نظرية الانواع الأدبية: ٣٧٥.
(٤٦٣) ظ: مجاز القرآن: د. محمد حسين علي الصغير: ١٠٣.

المبحث الثالث

الوظيفة الدينية

١ ـ ظاهرة الدعاء
٢ ـ ظاهرة الحث على الجهاد

الوظيفة الدينية

الدين هو اعمق عاطفة في نفس الانسان، ويرى الإمام ان واجبه الشرعي يحتم عليه ان يستثمر خطبه إلى اصحابه لتوجيههم إلى التمسك بالدين، ولن تشغله الحرب عن هذا الواجب، بل انها -الحرب- هي اولى دعائم الدين، ولذلك حفلت خطب الحرب عنده بالاشارات إلى بعض الاحكام الدينية التي يحتاج إليها المسلم في السلم، والحرب على السواء.

الوظيفة الدينية في خطب الحرب عند الإمام تؤكد السنن والمستحبات ومجالات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين، والدعاء بما يصلح شأن النفس والأمة، وكلها وظائف دينية في أطر اخلاقية وتربوية وشرعية، تستقي من تعليمات الدين الاسلامي الحنيف باعتباره من ابرز الروافد التي امدت خطب الإمام وقلوب الناس تتأثر بهذا المنهج، لانها تصلهم بالخالق سبحانه وتعالى وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والاخرة، وقد برع الإمام في عرض الامور الدينية ضمن خطبه الحربية، فقد عرضها باسلوب شائق، وجملها بالوان من التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، بلا تكلف ولا تعسف.

اعتمد الإمام القائد على اثارة عاطفة اصحابه، ليحبب اليهم طريق الحق، وهو طريق الخير، ومن ثم يوجههم إلى تقوى الله وخشيته فقد كان ((زهد الإمام قائم على ايمان حي بالله وتقوى صحيحة له، فانه من اشد الناس تعلقاً بالله ومن اكثر الناس تأملاً بصفائه وعجائب مصنوعاته))[٤٦٤].

وترتكز خطبه على التعاليم الاسلامية الفذة، فيورد في خطب الحرب مضمناً الآيات القرآنية والاحاديث النبوية مبيناً المعاني الدينية التي تساعده على اضرام نار الحماسة في صدور اصحابه للذود عن الدين ونشر لوائه.

وتتجلى الوظيفة الدينية عند الإمام بظاهرتين بارزتين، سوف يؤكد البحث عليهما وهما:

١- ظاهرة الدعاء.
٢- ظاهرة الحث على الجهاد.

١- ظاهرة الدعاء.

فلأنه يستمد بها الحول والطول من الله، فالقوة وحدها لاتحقق النصر، ولاتهدي القلوب، ولاتنتزع الظفر، بل يضاف إلى ذلك الاطئمنان لله عز وجل، وطلب النصرة منه، وحصر الاستعانة به في كلي الامور وجزئيها، وهكذا صنع الإمام عملاً بقوله تعالى [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ] (البقرة-١٨٦) والله اقرب للإنسان من حبل الوريد، فلينزل مقاصده به وحده، ولولا الدعاء لم يعبأ الله بالناس كما نص القرآن على ذلك في قوله تعالى:
[قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا] (الفرقان-٧٧) لهذا نجده مبتدأ بهذا المضمار ومتدرجاً، قال :

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَلايَجْمَعُهُما غَيْرُكَ، لأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لايَكُونُ مُسْتَصْحَباً وَالْمُسْتَصْحَبُ لايَكُونُ مُسْتَخْلَفاً"[٤٦٥]

---

(٤٦٤) الموجز في الأدب العربي: ١/ ٣٥٢.
(٤٦٥) نهج البلاغة: ١/ ٩٦.

هو دعاء دعا به الإمام عندما وضع رجله في الركاب، لكي يلتقي مع اهل الشام بصفين. جاء كلامه مُطمّئن لمن هم معه في المسير إلى الحرب. لأن الباري عز وجل هو خليفتهم في الأهل فضلاً عن مصاحبته لهم، صورة رائعة جاء بها الإمام لشد أزر اصحابه، حتى يقدموا بكل شجاعة على ماهم عازمون عليه.

ومن خطبة اخرى عند مسيره إلى الشام، خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين، قال:

"الْحَمْدُ لِلّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ كُلَّمَا لاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الإنْعَامِ وَلا مُكَافَإ الإفْضَالِ"(٤٦٦)

جاء بهذا الدعاء لينبه به اصحابه بأن عليهم ان يحمدوا الله على عاقبة كل أمر، ايا كانت تلك العاقبة فقد جاء الإمام بصور متقابلة بقوله "كلما وقب ليل وغسق"أي دخل واشتدت ظلمته، ومن ثم جاء بـ"لاح نجم وخفق" أي ظهر وغاب...فالامام يحمد الله سبحانه وتعالى على كل شيء. وعلى اصحابه ان يدركوا ذلك الحال.

ومن كلام أخر له لما عزم على لقاء القوم بصفين اذ ابتهل إلى الله عز وجلّ، فقال:

"اللّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .... إنْ أظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ. وَإنْ أظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ"(٤٦٧)

دعاء صريح عن نوايا الإمام فأنه يدعو الله سبحانه وتعالى احد حالين اما النصر وعند ذاك يدعو ربه ان يتجنب البغي وان يسدد خطاه للحق، والحال الثاني أي اذا اظهر العدو عليه فهو يدعو ان يرزقه الرب الشهادة او العصمة من الفتنة. فدعاء الإمام هنا يقوم ((بالدور الايضاحي في ابراز المعنويات بقالب حسي، وتجسيد العقليات بأطار مدرك، وقد اعتمد الظواهر الكونية...فجاءت الصور حسية دائبة بالحركة، ومادية لايتخطاها الادراك))(٤٦٨).

ومن كلام له وقد سمع قوماً من اصحابه يسبون اهل الشام ايام حربهم بصفين، فطلب منهم الكف عن السب وعلمهم الدعاء الآتي ادباً وتوجهاً، فقال:

"اللّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلالَتِهِمْ حَتّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ"(٤٦٩).

دعاء الإمام هنا يحمل قيماً انسانية باقية تصلح لكل عصر، فكلماته تصنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة(٤٧٠). خلق الإمام العظيم يدعو اصحابه بان يدعو بالهدى بعد الضلال الذي اصبحوا عليه خصومهم. وان يعرفوا طريق الحق بعد ان لهجوا بطريق الغي والعدوان.

دعاء اخر دعا به الإمام من خطبة له بعد التحكيم، اذ قال:

"الْحَمْدُ لِلّهِ وَإنْ أتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ، وَأشْهَدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ مَعَهُ إلهٌ غَيْرُهُ وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ"(٤٧١)

دعاء الإمام هذا، يدعو السامع إلى ان يتعظ منه ويأخذ دروساً عدة منها، أن يحمد الانسان كل ما تؤول اليه الامور والاشياء من عواقب، اياً كانت نهايتها، نجد يحمد الله سبحانه وتعالى، عما جرى نتيجة التحكيم فنعته الإمام بـ"الخطب الفادح والحدث الجليل"، فكل ما حدث لم يرتضيه الإمام ولم يكن موافقاً عليه ولكن "لا رأي لمن لايطاع" وبعد أن حمد الله على ما جرى يكمل خطبته بالشهادة، وهي اولى ما بني الاسلام عليه، وهو قول ((لا اله الا الله وحده لاشريك له وان محمداً عبده ورسوله))، وهذا القول دلالة عن عدم تزعزع الايمان في نفس الإمام وعندما ذكره امام اصحابه اراد تذكيرهم بأحد اركان الاسلام الخمسة وهو ترديد الشهادة.

اما الصيغة الثانية التي جاء بها دعاء الإمام ضمن خطب الحرب، هي الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، والتوجه إليه بالشكوى وجاءت ادعيته تلك بصيغة النقد والتعريض، كما ورد في خطبته في اصحابه بسبب تقاعسهم عن القتال، اذ قال:

---

(٤٦٦) نهج البلاغة: ١/ ٩٧.
(٤٦٧) نهج البلاغة: ٢/ ٨٣، ٨٤.
(٤٦٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٨٥.
(٤٦٩) نهج البلاغة: ٢/ ١٨٥، ١٨٦.
(٤٧٠) ظ: فن الخطابة: الحوفي: ١٦١.
(٤٧١) نهج البلاغة: ١/ ٨٤، ٨٥.

"اَللّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي فَأَبْدِلْنِي بهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، اَللّهُمَّ مُثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ"(٤٧٢)

يدعو الإمام ربه لأن يسلط على اصحابه الهموم والاحزان فكلاهما يؤثران في القلب، كما الملح في الماء، فكأن التشبيه التمثيلي هنا خير معين في ايصال الصورة التي ارادها الإمام.

دعاء اخر من كلام له في طلحة والزبير، قال:

" اَللّهُمَّ إنّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَبَّا النَّاسَ عَلَيَّ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أبْرَمَا، وَأرِهمَا الْمَسَاءَ ةَ فِيمَا أَمَّلا وَعَمِلا"(٤٧٣)

يورد الإمام الشكوى منهما اولاً على الرغم من علم الله سبحانه وتعالى بما يجري، الا ان الإمام قصد ذكر افعالهما امام اصحابه حتى يزداد يقينهم بما يحدث، ومن ثم يطلب ويدعو من الله ان يحلل ما عقدا من امر عليه، وان لايتم لهما ما ارادا من امر وان يجعل عاقبة ما امّلا عليه وعملا هو السوء.

قول أخر للإمام يدعو فيه سبحانه وتعالى وهو عبارة عن شكوى اخرى يدعو فيها الاله الاستنصار على قريش من احدى خطبه، اذ قال:

"اَللّهُمَّ إنِّي أسْتَعِينُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أعَانَهُمْ، فَإنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أمْراً هُوَ لِي، ثُمّ قَالُوا إلا أنَّ فِي الْحَقِّ أنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أنْ تَتْرُكَهُ"(٤٧٤)

وردت الاستعانة بالله سبحانه وتعالى في النص اعلاه صريحة وواضحة، فقد استعان الإمام بالله على اهل قريش، وقد وضح الإمام سبب طلب العون، لانهم قطعوا رحمه وقد نهضت الاستعارة هنا بتهويل الصورة، لأن الرحم يستدعي المحافظة على الصلة، فكان القطع أشد ايلاماً.

لايشترط في الأدب ان يكون نافعاً، بقدر ما يشترط أن يكون معبراً(٤٧٥). وعلى هذا ارتكزت خطب الإمام .

٢- ظاهرة الحث على الجهاد

وكما بدت الوظيفة الدينية بارزة الاثر في الدعاء، فقد برزت في مجال الحث على الجهاد، والدعوة اليه، فهو يحضّ عليه ويدعو الناس له، ويحببه الىنفوسهم، الا ترى قوله :

"أمَّا بَعْدُ فَإنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ ألبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمْلَهُ الْبَلاءِ"(٤٧٦)

كلام صريح وبيّن عن فضل الجهاد في الحياة الدنيا والأخرة، فقد استمد من اشعاعات الدين، ما يضيء به كلامه، فهو زاخر بالمعاني السامية التي تملأ قلبه، وتثقف افكاره، وهي مقتبسة من القرآن الكريم(٤٧٧).

كسا الإمام كلامه باجمل حلة بيانية، وقال "لباس التقوى" و"درع الله الحصينة" تشبيه بليغ، فالجهاد هو التقوى نفسها.

مرجع افكار الإمام القائد، التقوى والواجب معاً، ونجده يعمد في الخطبة الواحدة إلى الترغيب ومن ثم إلى الترهيب، ويبدو ان الإمام يجد في الترهيب اكثر تأثيراً في النفس وأعمق وابعد صدى، اذ قال من الخطبة نفسها "فمن تركه -الجهاد- رغبة عنه البسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء"، وقد تآزرت عناصر البيان-الاستعارة والكناية- لتجعل الكلام اعمق أثراً في نفوس سامعيه. وهنا الإمام ((لم يكن يحاول ان يفهم المقاتلين معنى التقوى، بقدر ما يسعى لاستثارة تلك العاطفة، مصوراً لهم الجنة وعذاب النار، وذل القاعدين عن الجهاد، حتى ينتقلوا من طور السلبية، من

---

(٤٧٢) م. ن.: ١/ ٦٥.
(٤٧٣) م.ن.: ٢/ ٢١.
(٤٧٤) نهج البلاغة :٢/ ٨٥، وظ: شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد :٢/ ٢٠٢.
(٤٧٥) ظ: العمل الأدبي: ٢٢٩.
(٤٧٦) نهج البلاغة: ١/ ٦٧.
(٤٧٧) ظ: الأدب العربي في الجاهلية والاسلام: عمر رضا: ١٦٧.

الخمول والعصيان والشغب إلى الجهاد والصبر والطاعة))[٤٧٨].

ويعود الإمام إلى الجهاد وشحذ همم اصحابه ويظهر قيمته بالنسبة للدين اذ قال من كلام له لما عزم على لقاء القوم بصفين:

" أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ وَالْغَائرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ، الْعَارُ وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ "[٤٧٩]

يحاول الإمام ان يثير همم اصحابه للدفاع كل عن اهله وعشيرته. وقوله "عند نزول الحقائق" أي المصائب العظيمات التي لاتدفع الا بعازمات الهمم، ويحاول ان يذكرهم بأن العار وراءهم والجنة أمامهم، ومطمع كل مسلم الجنة حتماً.

ومن خطبة اخرى يحث الإمام فيها اصحابه على الجهاد قال:

"وَاللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ، وَمُورِثكمْ أَمْرَهُ وَمُمْهلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ.."[٤٨٠]

يبدو الإمام في هذا النص يدعو اصحابه اولا إلى شكر الله سبحانه وتعالى، لأنه في اخر الامر يورثكم أرضه، ولكن لمن يرث ارضه سبحانه وتعالى؟ يرثها عباده الصالحين، ويعود الإمام فيكمل كلامه بقوله"ممهلكم في مضمار محدود لتتنازعوا سبقه"، اذن فعلى كل من اصحابه ان يكون متيقناً بأن الحياة ما هي الا مهلة اعطاها الله إلى عباده كي يعملوا فيها صالحاً، إذ أن وحياتهم محدودة بالاجل وجاءت الاستعارة هنا وسيلة بينة في جعل حياة المسلم كالمضمار[٤٨١]. ليتنافسوا في سباقه، والميدان هنا هي الحرب فالجهاد هو مضمار السباق.

يرتفع الإمام إلى قمة النصح، لانها صادرة عن عقيدة معتمدة على الصدق والحق معاً.

وسيلة أخرى يحث فيها الإمام اصحابه على الجهاد وذلك بذكر الصحابة الاوائل، من كلام قاله للخواج وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على انكار الحكومة، فقال:

"فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إلا إِيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ"[٤٨٢]

ومن ثم يكمل الإمام كلامه ويوضح سبب القتال الذي يدور في تلك الفترة، اذ قال:

"وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الإِسْلامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ والإِعْوِجَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ"[٤٨٣]

كانت المقابلة هنا خير رافد للوظيفة الدينية فالامام يحاول ان يثير عزيمة اصحابه بتذكيرهم بمن سبقهم في الاسلام -فقد كانوا يقتلون اقرب الناس اليهم من اباء وابناء واقارب، وما يزيدهم ذلك الامر الا ايماناً وتسليما- اما اليوم فما نحن عليه من قتال لأخواننا في الاسلام بسبب الزيغ الذي هم عليه والاعوجاج..فما هي الافتنة، وفعلها اشد من القتل.

ولايكتفي الإمام بالحث على الجهاد بل يضيف إلى ذلك بيان فضل الجهاد بأعتباره قائداً إلى الجنة، فهو يخاطب المقاتلين بساحة الحرب بقوله :

"الرَّائِحُ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنَ يَرِدُ الْمَاءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي"[٤٨٤]

هناك انتفاع من المضمون الفكري للنص القرآني، والحديث النبوي، كما سبق، واشرنا إلى ذلك. واستعمال الإمام لهذا النص ليمنح خطبه الحربية ايحاء اكثر. وجاء التشبيه هنا ليمنح القوة في الاشتراك بين الطرفين، جعل الكلام يبدو اكثر قدرة على الايحاء بالمعنى. بأن الله سبحانه وتعالى يروي ظمأ المجاهدين، فالجنة تحت اطراف سيوفهم.

---

[٤٧٨] فن الخطابة: ايليا الحاوي: ٩.
[٤٧٩] نهج البلاغة: ٢/ ٨٤.
[٤٨٠] م.ن: ٢/ ٢٣٣، ٢٣٤.
[٤٨١] أصل المضمار: المكان الذي تضمر فيه الخيل أي تحضر للسباق/ظ: نهج البلاغة:٢/ ٢٣٣.
[٤٨٢] نهج البلاغة: ١/ ٢٣٦.
[٤٨٣] م. ن:١/ ٢٣٦.
[٤٨٤] م. ن: ٢/ ٤.

نرى الإمام يتبع سبيلاً اخر من اجل حث اصحابه على القتال، وشد أزرهم، وذلك عن طريق تذكيرهم بقرب سبحانه وتعالى، منهم، فهم اصحاب حق، اذ قال من كلام كان يقوله لاصحابه في بعض ايام صفين:

"وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَاوِدُوا الْكَرَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الأعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ"(٤٨٥)

خطب الحرب مشبعة بروح التقوى، والدعوة لمظاهرة الحق على الباطل، وجاء بذكر الله والاطمئنان لقربه منهم فهم ((بعين الله))، فقد جاءت الكناية هنا لتوحي بقرب الباري عز وجل منهم. فهو قريب ممن يجاهد في سبيل اعلاء كلمة الحق ونصرتها.

وكما وصف الإمام قرب سبحانه وتعالى من الظالم فهو قريب، ايضاً منه، اذ قال من خطبة له :

"وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَى مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ"(٤٨٦)

جاء الإمام بـ ((الكناية)) كوسيلة للتعبير عن قرب الله سبحانه وتعالى من الظالم وتمكنه منه حيث شاء، وجاء كلام الإمام تمثيلاً لقرب السطوة الالهية، فعلى اصحابه او سامعيه عامة ان يحذروا من افعالهم واقوالهم.

كما استعمل الإمام الدين هنا في عتاب اصحابه وتقريعهم، بما عُرف عنهم في عدم طاعتهم له. اذ قال من خطبة له في ذم اصحابه:

"أوَلَيْسَ عَجَباً أنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ. وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الإسْلامِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ- إلَى الْمَعُونَةِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ"(٤٨٧)

حاول الإمام في هذا النص ان يعاتب اصحابه بعد ان جعل هناك مقابلة بين ما عليه اصحاب معاوية من حال - فهم "الجفاة الطغام" ولكنهم مطيعون له - وبين حال اصحابه وهم خلف الاسلام، وعلى الرغم من معونته لهم من العطاء فهم متفرقين عنه ومختلفين عليه. يبدو الإمام واضحاً في قصده حينما قال انتم "تريكة الاسلام وبقية الناس".

ويعود الإمام إلى الجهاد ويظهر قيمته بالنسبة للدين وذلك بعد ليلة الهرير، اذ يذكر اصحابه المتقاعسين، باصحاب الرسول وجاء كلامه بصيغة العتاب والتقريع:

"أيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إلَى الإسْلامِ فَقَبِلُوهُ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ.. يُبَشَّرُونَ بِالأحْيَاءِ، وَلايُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى"(٤٨٨)

لكي يثير الإمام مشاعر اصحابه، يذكرهم، بأصحاب الرسول ، الذين كانوا لايبشرون بالاحياء، فهم يطلبون الموت في سبيل نصرة الحق، وكانت الكناية أفضل من جسد ذلك المعنى أما قوله "لايعزون عن الموتى" كناية ايضاً، على أن الموت عندهم غاية السعادة، معتمدين آي الذكر الحكيم بقوله:

[وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ](٤٨٩)

فالشهادة هي الفوز العظيم، وهكذا فـ ((العقيدة الدينية هي الركن الاساسي، لانها تقدم الافكار التي يبنى عليها كل شيء))(٤٩٠).

خطبة اخرى يذكر الإمام فيها اصحاب الرسول ايضاً وفي المعنى نفسه، قال:

"لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ"(٤٩١)

اصحاب الرسول يطلبون السجود، فلا يشغلهم شيء عن عبادة لله، فهم لاينامون الليل لأجل ذلك، جاء بهذا الكلام كي يثير همم وعزائم اصحابه المتخاذلين عن نصرة الحق.

---

(٤٨٥) نهج البلاغة: ١/١١٤، ١١٥.
(٤٨٦) م. ن: ١/ ١٨٧.
(٤٨٧) م. ن: ٢/ ١٠١.
(٤٨٨) نهج البلاغة: ١/ ٢٣٥،٢٣٤.
(٤٨٩) سورة آل عمران: ١٦٩.
(٤٩٠) الظاهرة الأدبية في صدر الاسلام والدولة الاموية: ٣٢.
(٤٩١) نهج البلاغة: ١/ ١٨٩، ١٩٠.

الإمام يدعو اصحابه إلى العمل الصالح، وما قصده ((ليس مجرد الطقوس العبادية، وانما هو كل ما يساهم في اقامةالحياة الفاضلة على الأرض وفق دستور الله: القرآن الكريم، من صلاة، وزرع، وصناعة....واقامة الحق والعدل))[٤٩٢] ايضاً.

ونجد الإمام على طول خطب الحرب مع اصحابه يحاججهم في سبيل اقناعهم عن طريق البراهين العقلية بالدين، ولا بد له من الانفعال ليحقق التأثير.

فمن قوله في حث اصحابه على القتال في ساحة الحرب إذ جاء كلامه بصيغة النقد والتعريض، اذ قال:

"وَايْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الآخِرَةِ"[٤٩٣]

تتفاعل المؤثرات الدينية والسياسية في خطب الحرب والمعبر عن هذا التفاعل، هو البيان من تشبيه واستعارة وكناية فقد ((اقسم ان سلموا من الالم النازل بهم لو قتلوا بالسيف في الدنيا، فانهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الاخرة، على فرارهم وتخاذلهم، وسمي ذلك سيف الدنيا فجعل ذلك في مقابلته))[٤٩٤].

فالامام نجده هكذا، يجعل كل من العز والكرامة في كف، والذل والهوان بالكف الاخر، أي مرضاة الله وغضبه.. وعليهم أن يختاروا. فالانتصار الحقيقي عند الإمام هو الانتصار على النفس في كبت جماحها وميلها إلى الخطيئة.

ومن خطبة اخرى جاءت في الاسلوب نفسه نقداً، للخارجين عليه وتعريضاً بهم، ومن ثم حث اصحابه على القتال، اذ قال:

"وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَابَطَ الْغَيَّ مِنْ إدْهَانٍ وَلا إيهَانٍ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ وَفِرُّوا إلَى اللهِ مِنَ اللهِ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ"[٤٩٥]

"فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله" كلام مشبع بروح التقوى، والدعوة لمظاهرة الحق على الباطل، فالامام يؤكد على اصحابه ان يتمسكوا بالعروة الوثقى، وان يسيروا على نفس النهج الذي وضعه الباري عز وجل على يد رسوله الكريم وسيكون طريقهم -اصحابه- طريق الخير والحق معاً، وهو ما جاء به الاسلام منذ الوهلة الاولى لنزول الوحي على نبينا الكريم.

خطبة اخرى في تخويف اهل النهروان قال:

"فَأنَا نَذِيرُكُمْ أنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأثْنَاءِ هذا النَّهْرِ وَبِأهْضَامِ هذا الْغَائِطِ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاسُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ"[٤٩٦].

"على غير بينة من ربكم ولاسلطان مبين معكم" يبدو الإمام واضحاً في ابراز ما يريده، فهو يريد ان ينبه الخارجين عليه بأنهم في ضلال من أمرهم، فلا توجد معهم بينة من ربهم ولا سلطان مبين ايضاً. وهي محاولة اخرى في نقدهم والتعريض بهم فهم سيصبحون صرعى في هذا النهر- نهر الفرات- وعليهم ان ينتبهوا لذلك، عسى ان يحرك او يثير شيئاً ما في دواخلهم.

الاحكام الشرعية كانت احدى الموضوعات البارزة في خطب الحرب فقد مزج الإمامبين الدين والسياسة فيها وكان هدفه، اقناع جنوده بصحة ما يدعو اليه، ولأن زهده ((نابع من عقيدة راسخة ونظر عميق إلى حقيقة الدنيا التي كان يراها طريقاً إلى الأخرة، وهي حافلة بالشرور))[٤٩٧].

من هذه الاحكام الشرعية ما جاء من خطبة له بصفين اذ قال:

"أمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلايَةِ أمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ...وَأعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ

---

[٤٩٢] العمل الأدبي: البستاني: ١٥٤.
[٤٩٣] نهج البلاغة: ٢/ ٣.
[٤٩٤] شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٨/ ٦.
[٤٩٥] نهج البلاغة: ١/ ٦٣.
[٤٩٦] نهج البلاغة : ١/ ٨٦، ٨٧.
[٤٩٧] الموجز في الأدب العربي: ١/ ٣٥٢.

الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ وَعِزّاً لِدِينِهِمْ"[٤٩٨]

وفي المعنى نفسه قال من خطبته في استنفار الناس إلى اهل الشام، قال:

"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا.

وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالإجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةَ حِينَ آمُرُكُمْ"[٤٩٩]

نرى الإمام يؤكد على هذا الحكم الشرعي بتكراره ضمن خطبه الحربية، فهو حكم من الله وعليهم ان يتذكروه دائماً وان لايتناسوه. والامام لا يطالب بحقه عليهم فقط، بل، بما لهم عليه من حق ايضا. فقد حدد ماله وما عليه، محاولة منه ان يتعظوا ويهموا في طاعته، وجعلها من أعظم تلك الحقوق، ولكن، الإمام لم يحظ منهم، سوى التخاذل والتقاعس.

الإمام علي عرف بحق اصول الخطابة فما عرف اساساً عن فني ((الخطابة والكتابة، انهما مختصان بامر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار))[٥٠٠].

لقد وشح الإمام خطبه العسكرية ((بالحض الديني ذاكراًالاحداث المثيرة للهمم من تاريخ الاسلام القريب، واذ يشتد الخصام بين المصلحة السياسية والحقيقة الدينية، فان الإمام كان يؤثر الثانية، اذ يبدو، ابداً، خلال خطبه وكأنه قيم على الدين حريص عليه ترهفت مشاعره بالنسبة إلى ما يطرأ عليه، وما قد يشعر به من شوائب))[٥٠١]، فكل ما جاء به الإمام هو عصارة ايمانه وتقواه.

([٤٩٨]) نهج البلاغة: ٢/ ١٩٨.

([٤٩٩]) نهج البلاغة: ١/ ٨٤.

([٥٠٠]) كتاب الصناعتين: ١٤٢.

([٥٠١]) فن الخطابة : ايليا الحاوي/ ١٥٥، ١٥٦.

الخاتمة

الخاتمة

((خطب الحرب)) اثر من الآثار الفنية بقدر ما هي وسيلة للإقناع والتأثير، وقد كان الامام يقصد اهدى السبل إلى اقناعهم بفكرته فيتخير من الكلام ماهو ملائم لأثارتهم، فيأتي بالصور البيانية المؤججة لعواطفهم.

وقد لخصت اهم النتائج التي جاء بها البحث بدءاً بـ:

التمهيد: جاء التمهيد في عدة محاور، استعرضنا اولاً الاداء البياني مصطلحاً، فقد عدت الفنون البيانية اكثر قدرة على الكشف عما في الالفاظ من امكانات كامنة على وفق علاقات صياغة يحددها نوع الفن البياني. ومن ثم جاء اثر الاداء البياني في فن النثر، عامة، وفي الخطب خاصة، فقد كانت الخطابة في العصر الجاهلي ذات شأن عظيم، ومن ثم جاء الاسلام ولحق التطور بالخطابة كباقي الفنون الأدبية الأخرى، فقد املى نهجاً في الحياة يباين سابقه وكما هو معروف فان الأدب يتوافى مع السياسة والتوجيه العام ليخرج من هذا اللقاء نثر تشهد قوة تعبيره سلاحاً في المعركة ويعود الفضل في ذلك إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مما ادى إلى زيادة الخطابة قوة ووقعاً في النفوس. وانتهينا إلى ان كتاب ((نهج البلاغة)) يعد سفراً خالداً من اسفار الأدب العربي الاسلامي، ولامجال للشك في مدى اهميته.

 درسنا في الفصل الأول مصادر الأداء البياني، فجاءت على وفق افادة الإمام منها في اربعة مباحث:

القرآن الكريم: لاشك في ان القرآن الكريم اذا ذكر ضمن الكلام بان فضله على عبارات الخطبة ومن ثم تصبح ابلغ في الوصول إلى المراد واوقع في النفوس، والامام علي رفد خطبه الحربية من القرآن الكريم فقد اخذ منه كثيراً من المعاني والدلالات وجاء اثر القرآن في خطب الإمام الحربية بأربعة محاور :

أ) الاستشهاد بالايات الكريمة .

ب) انتقاء المفردة القرآنية.

ج) الالفاظ المتقابلة في الآيات القرآنية.

د) الافادة من التركيب الجملي في الآيات القرآنية.

الحديث النبوي الشريف: استعان الإمام بالاحاديث النبوية الشريفة في توشيح خطبه، واضفاء الجمال الفني، وقوة التأثير فيها، كما استعان بالصورة البيانية والاوصاف التي وردت في كلام النبيحيث اراد التعبير عن معنى مشابه لها، وقد جاء اثر الحديث النبوي في خطب الحرب للإمامعن طريقين:

أ) الاقتباس باللفظ.

ب) الاقتباس بالمعنى

الشعر العربي: تمكن الإمام بأصالة ان يوفق بين القيم الايجابية المتوارثة، والمثل الدينية الجديدة، فقد جاءت خطب الحرب للإمام تحمل في طياتها شيئاً من روح الشعر لأثارته كوامن النفس عند اصحابه بجانب مقتضيات العقل.

وكما يبدو أن لسرعة خطبة الحرب والغاية منها كانت وراء ابتعاد الإمام عن الاستشهاد بالشعر في تلك الخطب، فالامام يسعى إلى شحذ همم اصحابه وتبصيرهم بأهمية الجهاد وفضله من خلال الشريعة الاسلامية وهذا اقوى في تأثيره في النفوس.

الأمثال العربية: عني الإمام بالحجة والبرهان، فهو يرمي إلى القناعة المنطقية لتكون المبادئ اكثر عمقاً في نفوس اصحابه وسامعيه وعليه فقد استقى الإمام من الأمثال بمحورين، فضلاً عما جاء به من ثقافته الخاصة وهما:

أ) التضمين ، والتلميح.

ب) الأمثال المبتكرة.

□ ودرسنا في الفصل الثاني العناصر التي يتكون منها الاداء البياني فجاءت نتائجه موزعة في اربعة مباحث.
التشبيه : مثّل الإمام حقائق الاشياء وطبيعة الموصوفات بأوجه شبه مناسبة، بما يحقق الجانب البلاغي وقد كان نصيب التشبيه البليغ وافراً من بين انواع التشبيه الأخرى.
المجاز: وقد درسناه بنوعيه -العقلي والمرسل- وهما اقل الانواع استعمالاً في خطب الحرب موازنة بانواع الأداء البياني الأخرى، لأن الإمام بطبيعته يتحرى دقة الالفاظ ليحسن الوصف. وبما ان خطبة الحرب اكثر الخطب ارتجالاً، فالامام يجد في الفنون البيانية الاخرى طريقاً اسهل في ايصال افكاره ومشاعره.
كان المجاز العقلي سبيلها لتلوين الافكار وتوليد الصور، وبعث الأيحاء بما هو ملائم لطبيعة المعاني.

الاستعارة: جاءت خطب الإمام موشحة بالاستعارات من خلال العلاقات الجديدة التي اقامها الإمام بين الالفاظ، وذلك نابع من استيعابه لاسلوب القرآن الكريم الذي امدّه بهذا النمط من الأداء. وكثر التصوير بالاستعارة كثرة بينة في خطب الحرب، ولقد كانت الاستعارة المكنية ذات نصيب وافر، فجمال الاستعارة عند الإمام يرجع إلى انها تصور المعنى تصويراً يحقق الغرض، فهي من اساليب الصور الفنية التي تجمع إلى جنب العمق في نقل اللفظ اضافة المعنى الحس والحياة.
الكناية: وجدناها زاخرة بالحياة والتصوير، فقد اختار الإمام □ من الالفاظ والعبارات ما يرى فيها قوة ووضوحاً لتفعل فعلها في نفوس اصحابه وخصومه على السواء.
□ الفصل الثالث: ودرسنا في طياته وظائف الأداء البياني، وقد جاءت في ثلاثة مباحث:
الوظيفة النفسية: جاءت متباينة في ظاهر كلام الإمام □ من حثٍ على القتال، ونقد وتعريض، وعتاب وتقريع، فضلاً عن التشجيع وبث الروح المعنوية، لكنها تتفق في جوهرها لأجل التوضيح والاقناع بالافهام والمنطق.
فقد عَمِدَ الإمام إلى اتباع طرائق عدة في التأثير في نفسية اصحابه ومن ثم جاءت خطبه الحربية مزيجاً من الأدب مع النفس الانسانية حساً وفكراً وعاطفة.

الوظيفة العقلية: وما جاء في هذا المبحث هو ما ورد ضمن خطب الحرب من نصوص عرض فيها الإمام حججه وبراهينه، للتحريض على القتال والحرب والجهاد في سبيل الله، فقد جعل □ العقل بين يدي الادلة التي اراد تسخيرها إلى الهدف المقصود، وهدف الإمام هو الوصول بالمستمعين إلى درجة التصميم على العمل. والامام □ استطاع ببلاغة ناصعة جلاء المعاني والكشف عن الحجة والايحاء باعمق الحقائق فضلاً عن قوة ادراكه.
الوظيفة الدينية: ارتكزت خطب الإمام عامة وخطب الحرب خاصة على التعاليم الاسلامية الفذة، يورد في خطبه الحربية الايات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، وكل المعاني الاسلامية التي تساعده على اضرام نار الحماسة في صدور اصحابه للذود عن الدين ونشر لوائه، وقد تجلت هذه الوظيفة بظاهرتين بارزتين :
أ) ظاهرة الدعاء.
ب) ظاهرة الحث على الجهاد.
وهكذا نخرج من هذا البحث ان نثر الإمام علي بن ابي طالب □ -خطب الحرب- تشهد قوة تعبيره سلاحاً في المعركة، فالخطابة كانت وسيلة في الاقناع والتأثير، ومن ثم كانت ذات تأثير كبير في الأدب العربي، وفي من جاء بعده من شعراء وخطباء، فقد نهلوا من اسلوبه في صياغة العبارة والصورة وتوليد المعاني وتكثيرها. فضلاً عن المواعظ والحكم التي كانت ترفد كتب الأدب العربي.
[فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ](الرعد/١٧)

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الابداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري – ثائر حسن جاسم –الطبعة الأولى – دار الرائد العربي- بيروت - لبنان ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- الاتقان في علوم القرآن- للحافظ جلال الدين السيوطي – (ت٩١١هـ) – تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري – ابتسام مرهون الصفار- اليرموك- بغداد – ١٩٧٤.
- احكام صنعة الكلام – لذوي الوزارتين ابي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الاشبيلي الأندلسي، أحد اعلام القرن السادس الهجري- تحقيق: محمد رضوان الداية – دار الثقافة – بيروت – مطبعة النجوى- لبنان – ١٩٦٦.
- الأدب العربي في الجاهلية والإسلام – عمر رضّا كحالة – المطبعة التعاونية – دمشق – ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.
- الأدب في موكب الحضارة – مصطفى الشكعة- مصر – المطبعة الفنية – ١٩٦٨م.
- الأدب وفنونه – د. محمد مندور- الطبعة الثانية – دار نهضة مصر – الفجالة .
- أسرار البلاغة – الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن ت ٤٧١هـ)- تحقيق: هلموت ريتر– الطبعة الثالثة – دار المسيرة – بيروت –١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – د. مجيد عبد الحميد ناجي- الطبعة الأولى – مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
- الاسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الاساليب الأدبية – أحمد الشايب – الطبعة السادسة – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٦٦م.
- اصول البيان العربي ، رؤية بلاغية معاصرة – د. محمد حسين علي الصغير – مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٦م.
- الأصول الفنية للأدب – عبد الحميد حسن – مكتبة الانجلو المصرية – ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م. مطبعة العلوم - القاهرة .
- اضواء على السنة المحمدية – محمود ابو رية – الطبعة الأولى – دار التأليف – مصر – ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م

- اعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي – الطبعة السادسة – مطبعة الاستقامة – مصر – ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م.
- الاغاني – لأبي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني (ت٣٥٦هـ) – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.
- الإمام علي ومدرسة القرآن – د. نعمة هادي الساعدي – النعمان – النجف – ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
- الامامة والسياسة – لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري (ت٢٧٦هـ)- المعروف بتاريخ الخلفاء- تحقيق: الدكتور طه محمد الزيني – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.
- الايضاح في علوم البلاغة / المعاني والبيان والبديع – لأبي عبد الله جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)- تحقيق: لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر- اعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد – مطبعة السنة النبوية – القاهرة.
- البحث البلاغي عند العرب – د. احمد مطلوب – الموسوعة الصغيرة (١١٦)- منشورات دار الجاحظ للنشر – بغداد ١٩٨٢م.
- البديع – عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هـ) – تحقيق: اغاطيوس كراتشوفسكي- مطبعة مكتبة المثنى – بغداد – ١٩٦٧م.
- بديع القرآن- ابن ابي الأصبع (عبد العظيم عبد الواحد المصري – ت٦٥٤هـ)- تحقيق: د.حفني محمد شرف- الطبعة الثانية – دار نهضة مصر – القاهرة .
- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الزركشي (ت٧٩٤هـ)- تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم – دار احياء الكتب العربية – القاهرة – ١٩٥٧م.
- البلاغة والتطبيق – د. احمد مطلوب و د.كامل حسن البصير – الطبعة الثانية – مطابع دار الحكمة – بغداد – ١٩٩٠م.
- البلاغة العربية ، المعاني والبيان والبديع – د. احمد مطلوب – الطبعة الأولى - مطبعة دار الكتب – بغداد ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
- بلاغة القرآن الكريم – احمد احمد بدوي – لجنة البيان – مصر – ١٣٧٠هـ.

- بنـاء الـصورة الفنيـة فـي البيـان العربـي- د. كامـل حـسن البـصير – مطبعـة المجمـع العلمـي العراقـي– ١٤٠٧هــ ١٩٨٧م.
- البيان والتبيين – لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)- تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون – الطبعة الخامسة – دار الفكر – بيروت – ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول – للشيخ منصور علي ناصف – الطبعة الثالثة – دار احياء التراث العربي- بيروت- ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م.
- تاريخ الأدب العربي –احمد حسن الزيات – الطبعة الاربع والعشرون–دار نهضة مصر للطباعة والنشر – الفجالة – القاهرة.
- تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان – نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار – دار المعارف المصرية
- تاريخ الأدب العربي / العصر الاسلامي- د. شوقي ضيف- الطبعة الخامسة – دار المعارف– مصر – ١٩٦٣م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)- لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)- تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم – ط٥- دار المعارف – مصر – القاهرة – ١٩٨٧م.
- التصوير الفني في القرآن – سيد قطب – الطبعة الثالثة – دار المعارف – مصر – ١٩٥٦.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن / دراسة دلالية مقارنة – عودة خليل ابو عودة – الطبعة الأولى – مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن – ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- التعبير القرآني- د. فاضل صالح السامرائي – بيت الحكمة – بغداد ١٩٨٦-١٩٨٧م.
- التفكير البلاغي عند العرب / اسسه وتطوره إلى القرن السادس – حمادي صمودا – منشورات الجامعة التونسية – السلسة السادسة – مجلد ٢١- المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية – ١٩٨١م.
- تلخيص الخطابة – ابن رشد – حققه وقدم له : عبد الرحمن بدوي – دار القلم – بيروت – لبنان.
- التلخيص في علوم البلاغة – لجلال الدين محمد عبد عبد الرحمن الخطيب القزويني – شرح: عبد الرحمن البرقوقي – الطبعة الثانية – المكتبة التجارية – القاهرة – ١٩٣٢م.
- تهذيب الأحكام – لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) – تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان– الطبعة الثانية- دار الكتب الاسلامية – مطبعة النعمان – النجف – ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م.

- الجمان في تشبيهات القرآن / ابو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادي (ت٤٨٥هـ)- تحقيق: د.احمد مطلوب ود. خديجة الحديثي – دار الجمهورية – بغداد – ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م.
- جواهر البلاغة / في المعاني والبيان والبديع – احمد الهاشمي – الطبعة الثانية عشرة – المكتبة التجارية الكبرى – مصر – ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م.
- الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية – محمد ضاري حمادي- الطبعة الأولى – بيروت – ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل – شهاب الدين محمود الحلبي (ت٧٢٥هـ)- تحقيق ودراسة: اكرم عثمان يوسف- دار الرشيد للنشر – دار الحرية للطباعة – بغداد –١٩٨٠م.
- حسن الصنيع في علم المعاني والبيان والبديع – الشيخ محمد البسيوني البياتي – الطبعة الأولى – المطبعة المحمودية التجارية – مصر.
- الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام – محمد عبد المنعم الخفاجي – الطبعة الأولى – مكتبة الحسين التجارية – ١٣٦٩هـ ١٩٤٩م.
- حياة أمير المؤمنين في عهد النبي – محمد صادق الصدر – الطبعة الثانية – دار الكتب – بيروت – ١٣٩١هـ ١٩٧١م.
- الحيوان – ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)- تحقيق: عبد السلام محمد هارون – الطبعة الثانية – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر – ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.
- الخصائص – ابوالفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) –تحقيق: محمد علي النجار- الطبعة الرابعة – مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٩٠م.
- الخطابة العربية في عصرها الذهبي – احسان النص – دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٢م.
- الخطابة في صدر الاسلام / العصر الديني – عصر البعثة الاسلامية – د. محمد طاهر درويش – دار الجيل – مصر – ١٩٦٧م.
- الخطب والمواعظ- محمد عبد الغني حسن- الطبعة الثانية- دار المعارف- مصر- ١٩٦٨م.

- دلائل الاعجاز في علم المعاني – الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)- صحح اصله الإمام محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي – تصحيح طبعه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا – مكتبة القاهرة – مصر –١٣٨١هـ ١٩٦١م.
- روائع نهج البلاغة – جورج جرداق – دار الشروق – بيروت – ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.
- سر الفصاحة – عبد الله بن سنان الخفاجي الحلبي (ت٤٦٦هـ)- صححه وعلق عليه: عبد المتعال الصعيدي – مطبعة محمد علي صبيح – مصر – ١٣٧٢هـ١٩٥٢م.
- سنن ابي داود – للإمام الحافظ ابو داود سليمان بن الاشعث بن اسحاق الأزدي السجستاني – تعليقات الأستاذ الشيخ احمد سعد علي من علماء الأزهر الشريف – الطبعة الأولى- شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر – ١٣٧١هـ ١٩٥٢م.
- شرح ديوان الحماسة – لأبي علي احمد بن محمد بن الحسين المرزوقي (ت٤٢١هـ) – نشره: احمد امين وعبد السلام هارون – الطبعة الثانية – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
- شرح صحيح البخاري – لمحمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)- محمد بن يوسف الكرماني – مطبعة البهية – مصر – ١٣٥٨هـ.
- شرح نهج البلاغة – عز الدين عبد الحميد بن ابي الحديد المدائني (ت٦٥٦هـ)- تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم – الطبعة الأولى – دار الجيل – بيروت – ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم – لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- عيسى البابي – مصر – ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.
- الصورة الفنية في المثل القرآني / دراسة نقدية وبلاغية – د. محمد حسين علي الصغير – دار الرشيد للنشر – ١٩٨١م.
- طبقات فحول الشعراء – محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ)- قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر: مطبعة المدني- العباسية – القاهرة – ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
- الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز – ليحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي (ت٧٤٩هـ)- تصحيح : سيد بن علي المرصفي – مطبعة المقتطف – مصر – ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.

- الظاهرة الأدبية في صدر الاسلام والدولة الأموية – احسان سركيس – الطبعة الأولى – دار الطليعة – بيروت – ١٩٨١م.
- عبقرية الشريف الرضي (ت٤٠٦) – زكي مبارك – دار الجيل – بيروت – ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- عصر القرآن – محمد مهدي البصير – الطبعة الثالثة – دار الشؤون الثقافية – مطبعة العاني – بغداد – ١٩٨٧م.
- العقد الفريد – لابي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ت٣٢٧هـ)- تحقيق : محمد سعيد عريان – الطبعة الثانية – مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م.
- علم البيان ، دراسة تاريخية وفنية في اصول البلاغة العربية – د. بدوي طبانة – الطبعة الثانية – مكتبة الانجلو المصرية – المطبعة الفنية الحديثة – ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م.
- علي والقرآن – محمد جواد مغنية – دار الأندلس – بيروت – ١٩٦٠م.
- العمدة ، في محاسن الشعر وآدابه ونقده- لابن رشيق ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني وابن الازدي (ت٤٥٦هـ)- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد – الطبعة الرابعة – مطبعة دار الجيل – بيروت – ١٩٧٢م.
- العمل الأدبي – لحسن الشيرازي – قدم له: فؤاد افرام البستاني – دار الصادق – بيروت.
- عيار الشعر- لمحمد بن احمد بن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ)- تحقيق: د. طه الحاجري ود.محمد زغلول سلام – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة – ١٩٥٦م.
- فن الخطابة – د. احمد محمد الحوفي – الطبعة الرابعة – مطبعة دار نهضة مصر – الفجالة – القاهرة .
- فن الخطابة وتطوره عند العرب – ايليا الحاوي – دار الثقافة – بيروت – لبنان.
- في الأدب والبيان –د. محمد بركات حمدي ابو علي – دار الفكر والنشر والتوزيع – عمّان – ١٩٨٤م.
- في دائرة النقد اللغوي – يوسف نمر ذياب- الطبعة الأولى – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٨٨م.
- في ظلال نهج البلاغة / محاولة لفهم جديد – شرح محمد جواد مغنية – الطبعة الثانية – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٧٨م.
- في النقد الأدبي – د.شوقي ضيف- الطبعة الثانية – مطبعة دار المعارف – مصر.
- في النقد والأدب، مقدمات جمالية عامة ومقطوعات من العصر الاسلامي والاموي- ايليا الحاوي – الطبعة الرابعة – دار الكتاب اللبناني – بيروت – ١٩٧٩م.

- القرآن والصورة البيانية – د. عبد القادر حسين – عالم الكتب – ١٣٨٣هـ- ١٩٧٥م.
- قضية الاسلام والشعر – ادريس الناقوري – الطبعة الثانية – دار الشؤون الثقافية –آفاق عربية– بغداد – ١٩٨٦م.
- الكافي – محمد بن يعقوب الكليني الرازي (ت٣٢٩هـ)- صححه وقابله وعلق عليه : علي اكبر الغفاري – مطبعة حيدري – ١٣٧٥هـ.
- الكامل في التاريخ – للإمام عمدة المؤرخين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بأبن الأثير الجزري ، الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ)- الطباعة المنيرية – مصر – ١٣٥٦هـ.
- الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف – لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٦هـ)- تحقيق: احمد محمد شاكر – مطبعة عيسى البابي- مصر ١٣٥٥هـ.
- كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، دراسة وتحليل –د. عبد الرزاق ابو زيد زايد– الناشر: مكتبة الانجلو المصرية – ١٩٧٦م.
- كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر – لابي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ)- تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم – الطبعة الثانية – عيسى البابي – القاهرة – ١٩٧١.
- لسان العرب – لابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت٧١١هـ)- دار صادر ودار بيروت – لبنان – ١٣٧٥هـ- ١٩٥٥م.
- مباحث في علوم القرآن – د. صبحي الصالح- الطبعة العاشرة – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ١٩٧٧م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ)- تحقيق: د. احمد الحوفي ود. بدوي طبانة – الطبعة الأولى – دار نهضة مصر- الفجالة – القاهرة – ١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م.
- المجازات النبوية- محمد بن الحسين الشريف الرضي- (ت٤٠٦هـ)-تحقيق: محمود مصطفى- مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ١٣٥٦هـ-١٩٣٧هـ.
- مجاز القرآن، خصائصه الفنية وبلاغتهُ العربية – د. محمد حسين علي الصغير – الطبعة الأولى – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٩٤م.

- المجـاز فـي البلاغـة العربيـة – د. مهـدي صـالح الـسامرائي – الطبعـة الأولـى – دار الـدعوة – حمـاة– سـورية – ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
- المجـاز وأثـره فـي الـدرس اللغـوي – د. محمـد بـدوي عبـد الجليـل – دار الجامعـات المـصرية – الاسـكندرية – ١٩٧٥م.
- مجمع الأمثال – لأبي الفضل احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم النيسابوري الميداني (ت٥١٨هـ) – حققه وفصله وضـبط غرائبـه وعلـق حواشيه : محمـد محـي الـدين عبد الحميـد – الطبعـة الثانيـة – مطبعـة الـسعادة – مـصر – ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م
- مجمع البيان في تفسير القرآن – للشيخ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسـي(ت٥٤٨هـ)- تحقيق: هاشم الرسـولي المحلاتي – مطبعة دار أحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م.
- مسند أحمد – لأحمد بن محمد بن حنبل الشيباني – تحقيق: احمد محمد شاكر- دار المعارف – مصر – ١٣٦٩هـ ١٩٥٠م.
- مع نهج البلاغة ، دراسة ومعجم – د. ابراهيم السامرائي – الطبعة الأولى – دار الفكر للنشر والتوزيع – عمّان – ١٩٨٧م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – د. احمد مطلوب – مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.
- المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي – عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل – رتبه ونظمه: د. أ.ي. ونسنك – مكتبة بريل – مدينة ليدن – ١٩٣٦
- مفاتيح الغيب – فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت٦٠٦هـ) – دار الطباعة العـامرة – استانبول – ١٣٠٧هـ.
- مفتاح العلوم -يوسف بن ابي بكر السكاكي (ت٦٢٦هـ) – ضبطه وكتب هوامشه : نعيم زرزور – الطبعـة الأولـى – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
- مقدمة في النقد الأدبي – د. علي جواد الطاهر – بيروت – ١٩٧٩م.
- من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم – د. عثمان موافي – مؤسسة الثقافة الجامعية – الاسكندرية

- الموجز في الأدب العربي وتاريخه، الأدب العربي القديم – حنا الفاخوري – الطبعة الأولى – دار الجيل – بيروت – ١٩٨٥م.
- نحو أدب اسلامي- عبد الهادي الفضلي – مطبعة الآداب – النجف – ١٣٩١هـ.
- نظرية الأنواع الأدبية / تأليف M.L'abb'e –ci . Vincent– ترجمة: د. حسن عون- الناشر: منشأة المعارف- مطبعة مصنع الأسكندرية للكراس- ١٩٧٧م.
- النقد الأدبي الحديث- د. محمد غنيمي هلال – دار نهضة مصر للطبع والنشر – الفجالة – القاهرة.
- نقد الشعر – ابو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) – تحقيق: كمال مصطفى – مطبعة مكتبة الخانجي – القاهرة – ومكتبة المثنى – بغداد – ١٩٦٣م.
- النقد العربي القديم، بين الاستقراء والتأليف – د. داود سلوم – الطبعة الثانية – الناشر مكتبة الأندلس – بغداد – ١٩٧٠م.
- نقد النثر – المنسوب لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي – تحقيق: طه حسين وعبد الحميد العبادي – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٥١هـ ١٩٣٣م
- النكت في اعجاز القرآن – ابو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ)- ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن- تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام- دار المعارف – مصر
- نهاية الايجاز في دراسة الاعجاز – ابو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي – الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) – تحقيق: د. ابراهيم السامرائي ومحمد بركات حمدي ابو علي – دار الفكر – عمّان- ١٩٨٥م.
- نهج البلاغة – شرح محمد عبده – مؤسسة الاعلمي للمطبوعات- بيروت- لبنان.
- نهج البلاغة – ضبطه وابتكر فهارسه العلمية: د. صبحي الصالح – الطبعة الأولى – بيروت – ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

الرسائل

- التصوير الفني في خطب الإمام علي □- عباس علي حسين الفحام - رسالة ما جستير، كلية التربية - جامعة الكوفة ١٩٩٩.